رواية

السَّبعة

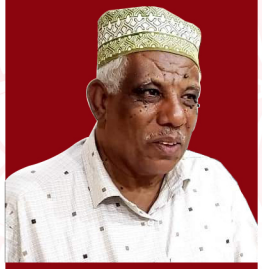


عمر عوض خريص

دار الأسعاء
للدراسات والنشر

السَّبعة

عمر عوض خريص



المؤلف في سطور:

❖ عمر عوض خريص.

❖ ولد في ١٠ يناير ١٩٦١م بمدينة الشحر - حضرموت.

❖ نشأ في الشحر وتعلم في مدارسها ومعاهد حضرموت.

❖ أسَّس مع رفاقه جمعية "الشحر للثقافة والتراث" في ١٧ أغسطس ٢٠٠٧م، وكان رئيساً لها.

❖ ترأس تحرير مجلة "سعاد" الفصليَّة الثقافيَّة.

❖ عضو مؤسس لاتحاد أدباء وكتاب الجنوب.

❖ تولى أمانة المالية لاتحاد أدباء وكتاب الجنوب فرع حضرموت.

❖ رئيس اللجنة الثقافيَّة لمؤتمر حضرموت الجامع للمديريات الشرقيَّة.

❖ عضو مؤسس "لنادي الشحر الأدبي" الذي تأسَّس في يوليو ٢٠٢١م، وتولى فيه الأمانة العامة.

❖ عضو الجمعيَّة الوطنيَّة الجنوبيَّة.

❖ له العديد من المؤلفات المطبوعة والمخطوطة منها:

١- دموع من حضرموت (قراءة في الرثاء الشعبي)، مطبوع، مكتبة كنوز المعرفة.

٢- حكايات وأسرار من صالون المحضار، مطبوع، دار الحضرمي.

٣-حصاد الفكر (أوراقي في الثقافة والتراث)، تحت الطبع، دار الأسعاء للدراسات والنشر.

٤- أميرة الشحر (رواية)، مطبوعة، دار الأسعاء للدراسات والنشر، ٢٠٢٢م.

٥- عذراء شكلنزة (رواية)، تحت الطبع، دار الأسعاء للدراسات والنشر.

٦- يا حضرموت الحب (ديوان شعر شعبي)، تحت الطبع، دار الأسعاء للدراسات والنشر.

٧- أيام أعلام الحضارمة في العصر الحديث، (قيد الإعداد).

الشّبعة

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت (٢١٥) لعام ٢٠٢٣م

عنوان الكتاب: السَّبعة (رواية).

المؤلف: عمر عوض خريص.

الإخراج الفني: قسم الإخراج بدار الأسعاء.

الحجم: ١٤ × ٢١ سم.

لوحة الغلاف: بريشة الفنَّان حسن بخيت، رسمها سنة ١٩٧٨م.

تصميم الغلاف: حُسام علي بامحسون.

الناشر

دار الأسعاء للدراسات والنشر

الشحر - حضرموت - اليمن، ت - وتس: ٠٠٩٦٧٧٣٨٤١٠٢٧١

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي.

عمر عوض خريص

السَّبعة

(رواية)

عن ملحمة المقاومة الشعبيَة الحضرميَة

في صد الغزو البرتغالي على مدينة الشحر

في العاشر من ربيع الثاني ٩٢٩هـ - ٢٨ فبراير ١٥٢٣م

تصدير

نسعد كثيراً في "دار الأسعاء للدراسات والنشر" حينما نقدِّم للقارئ الكريم أعمالاً أدبيَّة وعلميَّة جميلة ترفع من الذائقة الإبداعيَّة عند القارئ والمستوى المعرفي لديه، ونسهم في نشر الإبداع والتاريخ الحضرمي معاً في قالب جمالي بديع أنيق، مثل هذه الرِّواية الماتعة، ورواية "أميرة الشحر" وهما للأديب الأستاذ عمر عوض خريص الذي يعتبر من أبرز رجالات الحياة الثقافيَّة في حضرموت في الوقت الحاضر.

رواية "السَّبعة" التي بين أيدينا الآن، هي عمل إبداعي جميل، له امتدادات عميقة وجوهريَّة في بواطن روح مدينة الشحر التاريخيَّة خاصة، وروح الوحدة الحضرميَّة التي ظهرت جليَّة أمام الغزاة الطامعين الذين خابت آمالهم على عتبات هذا الوطن العظيم حضرموت، وستظل تلك الأطماع كذلك أبداً خائبة.

واليوم ونحن على عتبة الذكرى الخمسمائة للغزو البرتغالي على مدينة الشحر عاصمة حضرموت حينئذ، نسعد أن نقدِّم لكم هذا العمل الإبداعي الذي استحضر تلك الضوضاء والحرارة المنبعثة من المعركة الفاصلة التي دافع فيها أبناء المدينة ومن بها من

القاطنين - يداً بيدٍ - عن البلاد، واستبسلوا في تقديم أوضح الصُّور على ذلك الحُب المكنون في وجدان الأهالي لوطنهم.

وهذه الأعمال، التي منها هذه الرِّواية التاريخيَّة "السَّبعة" تسهم في إبراز القيم الإسلاميَّة، وبعث نماذج القدوة الذين يجب أن يستلهم منهم شباب هذا الزَّمان الصِّفات الموصلة للمجد ورقي المجتمع، ونحن في "دار الأسعاء" نهتم كثيراً بتقديمها للقارئ الكريم بصورة جميلة أنيقة، إيماناً منَّا بالارتقاء والصحوة الثقافيَّة الحضرميَّة الحادثة - قريباً - بإذن الله تعالى.

أمَّا عن التقنيات الإبداعيَّة التي استعملها الأستاذ عمر خريص في نحته لهذه القطعة الفنيَّة الساحرة، والسيمفونية الأدبيَّة الشائقة، فإننا نتركها ليتمتَّع القارئ بجمالياتها مع ذوق الاستخلاص الشهي للجمال الممزوج بالمصادفة، ولكي لا نفسد عليه المتعة؛ فإن من المعلوم أن مصادفة الجمال من غير موعدٍ يولّد دهشة يفتقدها كثيراً من الناس بسبب العادة والتعوُّد، وهذا الفرق بين الفيلسوف ومن سواه من الناس.

عادل حاج باعكيم

مدير دار الأسعاء للدراسات والنشر

إهداء:

إلى أهلي أهل الشحر في القرن العاشر الهجري، من تصدوا للغزو البرتغالي على بلدهم ودحروه بعدما قدموا الكثير من الشهداء، وعلى رأسهم قادة مقاومتهم السَّبعة أهل العلم والشورى، أهدي هذه الرواية المستمدة من تاريخهم المجيد، وإلى أحفادهم اليوم في القرن الخامس عشر الهجري بمناسبة الذكرى الخمسمائة لحدوث هذه المعركة الكبيرة في ٢٨ فبراير (١٥٢٣ـ ٢٠٢٢) م.

عمر عوض خريص

الشحر: 28 فبراير 2022م.

ضوء:

تُعَدُّ هذه الرِّواية عرضاً وتفسيراً لحادثة الغزو البرتغالي على مدينة الشحر في العاشر من ربيع الثاني عام ٩٢٩هـ الموافق ٢٨ فبراير ١٥٢٣م، فكل الشخصيَّات الرئيسة التي فيها شخصيات حقيقية حسب ما أوردته المصادر التاريخيَّة لتلك المعركة، وتأتي الشخصيَّات الثانوية استكمالاً للبناء الروائي في هذه الرواية.

أمير بحر

لم يكن جو المدينة ليلتها حاراً ولا بارداً، ولكن كان معتدلاً ورطباً نديا، تسري نسائمه عبقة زكية تتسرب إلى الأفئدة فتنعشها، فيحلو للمتعبين النوم حينئذٍ فيخلدون إليه راغبين فرحين، إلا أن الأرق استبد بالشيخ مبروك بن سلمان حنين فأخذ يتقلب على مضجعه يسرة ويمنى طالباً لغفوة تريحه من عناء نهاره ، فكيف لهذا الجسد أن يستسلم للنوم وفي رأسه تتصارع الأفكار والأخبار وأيضاً الأخطار المحدقة بمدينته العريقة (الشحر)، فمنذ أن جعله السلطان بدر بن عبد الله الكثيري (أبو طويرق) أمير بحر زادت متاعبه ومسئولياته.

إن العيون المخبرة تأتيه بأخبار الأسطول البرتغالي الذي يمخر بحر العرب ويهاجم السفن التجارية المبحرة فيه ويصادر ما فيها بل ويأخذها أو يحرقها بعد قتل بحارتها أو إحراقهم فيها، وهو يعلم جازماً بأن اليوم الذي سيأتي على مدينته ليس بالبعيد، وهذه الأخطار والأخبار هي ما رفعها لحاكم الشحر الأمير مطران بن منصور

ورفعها الأمير مطران للسلطان بدر من أجل الاستعداد للدفاع عن المدينة وصد أي اعتداء عليها من القادم بحراً، إلا أن السلطان بدر لم يشفِ غليله في تدبيره وأضحى يتمهل في اتخاذ اللازم لمجابهة أي طارئ وأخذ يجنح لسياسة المهادنة مع القادم بسفنه الغازية لبلاد العرب لعله يستميلهم بالهدايا والجزية، وهذا ما أثار حنق أمير بحر السلطنة وأزعجه وأقلقه، فلم يغمض له جفن وزاد تقلبه على فراشه مما أيقظ زوجته (سلمى) فنهضت مستطلعة في وجه زوجها وقد أجلى نور القمر ملامحه فرأت فيه ما رابها فبادرته قائلة:

ـ ما بالك أبا أحمد؟ ألم تنم؟

نظر إليها الشيخ مبروك محدقاً في عينيها وكأنه يخبرها بقلقه وعدم نومه واعتذاره عن إزعاجها، فمد يده اليمنى ومسح على رأسها متمتماً:

ـ ما عليك مني نامي يا عزيزتي..

رفعت رأسها وقالت مستغربة:

ـ كيف أنام وزوجي لم يغمض له جفن، ما يشغلك يا عزيزي يشغلني، وما يعنيك يعنيني، فما الذي أرقك وأحرمك نومك؟

ـ لا شيء يا سلمى سوى تفكيري في عملي وتدبيره.

ـ لا ينبغي لعملك أن يحرمك نومك يا عزيزي، فالليل للنوم والصباح للعمل، أما هكذا قوانين الحياة أم للبحر قوانين أخرى آه؟

تبسم مبروك ابتسامة عريضة وكادت تند عن شدقيه ضحكة فأمسكها خشية فض بكارة سكون الليل فآثر كتمانها، وأخذ برأس سلمى وضمه إلى صدره في حنان بالغ مستشفاً منها نبل هذه الزوجة الصالحة التي يجدها إلى جنبه في كل منعطفات حياته الصعبة ويجد عندها الحكمة والمشورة والرأي السديد، وهو شفيق بها عطوف عليها يحبها لخصالها الحميدة قبل جمالها الأنثوي الأنيق، سلمى ليست بالمرأة العادية ولكنها متقنة في بيتها ومتقنة في تعاملها مع مجتمعها، فهي للنساء مصلحة ومرشدة يلجأ إليها نساء حارتها (حارة القرية) في كثير من شئون حياتهن فيجدن لديها الحل الناصح والعلاج الناجع، وهي لزوجها بمثابة سكرتيرته الخاصة، فقال لها:

ـ اذاً دعينا ننام والصباح رباح..

قالت له وهي تداعب خصلات شعر لحيته الكثة:

ـ كيف ستنام وما في رأسك لم تفرغه بعد؟

نظر إليها بعد أن وضع رأسها بين كفيه وخاطبها:

ـ آها .. مازلنا في أول الليل فانهضي واصنعي لنا قليلاً من القهوة نشربها وأفرغ لك ما في رأسي؟ لعلي أجد عندك ما يريحني؟

ـ ستجد إن شاء الله .. ستجد .. وسوف أعمل لك فنجاناً من القهوة ما تزم به رأسك ويعدل مزاجك ..أبشر يا زوجي الحبيب أبشر.

نهضت سلمى وهي في تثنيها كخيزرانٍ طري لم يقطع من شجرته، وكانت تحتفظ في المادِ الذي يلي حجرتها بموقد صغير مصنوع من الصفيح جعلته لمثل هذه الحالات الطارئة لتلبية طلب زوجها من القهوة واليانسون وغلي الكركديه، فأوقدته بالفحم وشبت ناره ووضعت عليه دلتها الصغيرة حتى فار الماء فمزجته بالبن اليافعي اللذيذ مخلوطاً بقليلٍ من الزنجبيل المطحون وأخذتها إلى زوجها مبروك وثغرها يند عن ابتسامة سحرية أخاذة بدأت فيه ثناياها كأنهما فصان فضيان يلمعان، ولعل مبروك أغراه ذلك الثغر الباسم فأراد أن يرتشفه قبل ارتشاف فنجان القهوة ولكنه تدارك ما هو فيه من أمر يؤرقه فعدل وسطه وتربع جالساً، أما سلمى فوضعت ما في يديها وجلست متربعة وبدأت تسكب القهوة في أقداحها وهي تقول:

ـ عملتُ لك قهوة مضبوطة ستروق لك وتضبط مزاجك.

قالت هذا وقهقهت قهقهة خفيفة فيها من الغنج والدلال ما فيها، فأخذ مبروك فنجانه وارتشف منه رشفة خفيفة متذوقاً ومتجنباً لحرارة القهوة ، ثم نظر إلى عينيها وقال متمماً:

ـ الله الله ما أجمل قهوتك؟ ما الذي عملتيه فيها؟

ـ هذا سر المهنة يا زوجي العزيز هههه.

ـ تسلمين لي يا غالية تسلمين..

وعاود مبروك ارتشاف القهوة وأفرغ فنجانه وأشار إليها بسكب آخر فيه، فتهللت أساريرها ووضعت له فنجاناً آخر من القهوة وقالت له:

ـ هات يا عزيزي وأخبرني بما يقلق بالك ويشغله؟ أريد هذا بالتفصيل؟

أومأ إليها برأسه وأبعد بيديه الدلة واتكأ على حافة السرير ومدَّ رجليه ثم أشار لها بأن تضع رأسها على فخده وتتمدد لتأخذ راحتها ففعلت، وأخذ يمسح على شعر رأسها وبدأ يحدثها:

ـ ما أردتُ يا عزيزتي أن أشغلك بمشاغلي ولكنك مستودع أسراري، فعليك بالصبر والتحمل فمسئولية إمارة البحر وحراسة السلطنة متعبة وشاقة خصوصاً في هذه السنوات ففيها الكفار البردجيز

يطوفون بسفنهم على شواطئ البحار، ويغيرون على السفن الماخرة في عبابها ينهبونها ويقتلون بحارتها كما يغيرون على المدن والقرى مثلما فعلوا في سقطرى وعدن وأظن أن الشحر لن تسلم من غزوهم وغارتهم عليها، وقد رفعت أخبارهم وما يفعلونه في البحر إلى السلطان بدر والأمير مطران بن منصور أمير الشحر، لعلهم يعززون القوة الدفاعية للمدينة ويعملون حساباً لمثل هذه الأعمال العدائية، ولكن السلطان بدر يعد بالنظر في هذا دون أن يحرك ساكناً أو يأمرنا بفعل شيء يذكر غير قوله عليكم باليقظة وتتبع أخبار البردجيز ورفعها إلي، وماذا عسانا أن نفعل إذا هاجمتنا سفنهم في حين غفلة، فحاميتنا ضعيفة، والسلطان بالأمس ذهب إلى حضرموت الداخل على رأس الجيش لإخضاع بعض القبائل المتمردة، ويريد أيضاً أن تكون سيئون عاصمة لدولتهِ وقاعدة ملكه فهو يعمل لذلك ويؤسس له، وها هي الشحر اليوم مكشوفة، فكيف نعمل إذا هاجمنا البردجيز ولديهم من الأسلحة النارية الحديثة ما ليس لدينا؟

رفعت سلمى رأسها من على فخذ زوجها مبروك أمير بحر الشحر وقائد حاميتها البحرية، وقالت له:

ـ إن الوضع خطير والأمر كبير ويحتاج إلى تدبير ؟

ـ وكيف ندبر هذا الأمر في ظل هذه المعطيات السلطانية السلبية؟

ـ مهما يكن من أمر السلطان فهو في منأى عن أي مكروه .. ولكن الخطر يحدق بالشحر وأهلها وقاطنيها فلن يسلم أحد؟

ـ إذاً ما العمل والسلطان يستهين بالأمر؟

ـ أرى أن تلتقي الأمير مطران غداً وتطلعه على خطورة الأمر، وعليه أن يجمع أعيان البلاد لتدارس الوضع وتهيئة المواطنين للاستعداد لأي طارئ قد يحدث، فلن يدافع عن الشحر غير أهلها ورجالها.

أعجب مبروك برأي زوجته سلمى أيما إعجاب وقد قلبهُ وأيقن فعلاً بأن يشرك كل أهل بلده في هم الدفاع عن بلدهم وتحمل مسئوليتها، فانفرجت أساريره وانشرح صدره، وقال لزوجته شاكراً:

ـ هو كذلك لن يدافع عن الشحر إلا أهلها.. شكراً عزيزتي.

ثم قام وسجد سجدة الشكر لله على ما أنعم عليه وأكرمه بهذه الزوجة الراجح عقلها الفائقة نباهتها، ثم اعتلى سريره واستلقى وأمر سلمى بأن تطفئ السراج فأطفأته وانضمَّت إليه في سريرها محتضنة زوجها، وخلدا إلى نوم عميق.

مطران

حينما شقت سجاف الليل تراحيم السحر من المسجد المجاور لبيت أمير بحر الشحر الشيخ مبروك، نهض مستيقظاً من نومه وحث خُطاه إلى حمام بيته وأسبغ وضوءه ثم نشر سجادته وصلى لله ركعتين وسبح وحمد وصلى على النبي صل الله عليه وسلم مائة صلاة، ومثله فعلت زوجته سلمى راكعة ساجدة مسبحة، نهض مبروك وارتدى قميصه وتمنطق حزامه وخنجره وأحكم عمامته على رأسه، فتساءلت سلمى قائلة:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ لم يؤذن الفجر بعد؟

قال لها وقد وضع رداءه الآخر على كتفيه:

ـ سوف أذهب لأصلي الفجر في مسجد الغالبي ففيه يصلي الأمير مطران، هناك ألتقيه وأحدثه في أخبار البردجيز وخطرهم الداهم لعلنا نتدارك الأمر ونعمل احتياطاتنا.

قالت له سلمى وقد وافقته على ما أراد:

ـ خير ما تعمل يا زوجي العزيز، وفقكم الله لما فيه صلاح العباد والبلاد.

وقبل أن يخرج من بيته أطل من النافذة البحرية لبيته ليطلع على أحوال البحر والساحل، فشرفته هذه تتيح له مدى واسعاً مطلاً على البحر والساحل، فرأى سكوناً عاماً ورأى المصابيح والأضواء خافتة في السفن والعباري الراسية على الميناء، وعلى الشاطئ بعض الصيادين يهيئون قواربهم للانطلاق بها بعد صلاة الفجر مباشرة إلى مواقع الاصطياد منها على موقع الضبة، ومنها على مشارف مدينة الحامي، وهذا هو دأبهم اليومي في طلب الرزق واصطياد السمك، وحين اطمأن أمير البحر لسكون الحركة غادر بيته متوجهاً إلى مسجد الغالبي لأداء صلاة الفجر فيه ومقابلة الأمير مطران، في طريقه ولج قلب السوق ومركزها فإذا هي هادئة سوى بعض الحركة في مطاعم العصيد ومطاعم الهريس التي يبكر أصحابها لطبخها وتحضيرها من الهزيع الأخير من الليل حتى تستوي مع الفجر، وتباع بعد صلاة الفجر مباشرة، ثم سلك الطريق السلطانية هذه الطريق أمر بتعبيدها وتظليلها وتشجيرها السلطان بدر أبو طويرق فأصبحت منجزاً سلطانياً يحمد عليه، وعلى طرف السوق يقع مسجد الغالبي فولجه مع أذان الفجر، وبعد الأذان بلحظات ولج المسجد الأمير مطران ولمح الشيخ مبروك معتكفاً فيه

فأشار إليه بالتحية مبتسماً، وما أن انقضت الصلاة وتصافح المصلون وهي عادة توارثها أهل الشحر وهي المصافحة الجماعية بعد صلاة البردين الفجر والعصر حتى هرع أمير بحر الشحر مبروك سلمان حنين إلى أمير الشحر الأمير مطران، فهز الأمير مطران كف الشيخ مبروك وناظره بعينيه قائلاً:

ـ أيش عندك يا مبروك؟ قاصد وإلا جازع؟

ـ بل قاصد يا سيدي الأمير ولأمر مهم.

ـ خير إن شاء الله.. تعال نذهب للديوان.

خرج من المسجد الأمير مطران والشيخ مبروك، وخلفهما حارسان للأمير يتبعانه، وإمام ديوان الحكم والإدارة، فتح الحارس الباب ودخل الأمير والشيخ إلى غرفة استقبال الضيوف الصغرى، وهي الغرفة التي ينفرد فيها الأمير بمن أراد للتباحث في أمور السلطنة المهمة، وقبل أن يتناولا الحديث أمر الأمير أحد جنوده بإحضار دلة قهوة من السوق وصحني عصيد له وللشيخ، ثم جلسا متقابلين وبادر الأمير الشيخ بقوله:

ـ هات يا شيخ مبروك ما عندك هات..

ـ ما عندي يا سيدي الأمير أقلقني البارحة واحرمني نومي، فقد شغل تفكيري فعائل البردجيز في وسط البحر، وتعديهم على البلدان، فلم تسلم من اعتدائهم أي سفينة يرونها ولا أي بلد يقصدونها ولن تسلم مدينة الشحر من شرهم، وقد ألحقوا الأذى بسفننا في عرض البحر ونهبوا منها ما نهبوا وقتلوا من بحارتها ما قتلوا، فجئت إليك اليوم لتعمل احتياطات السلطنة في الدفاع، فالبردجيز ليسوا منا ببعيد وننتظر وصولهم في أي لحظة ويوم، وأنت ترى من ضعفنا ما ترى.

ـ نعم وهذا ما يشغلني منذ أن توليت إمارة الشحر وأنا أرى أن الخطر يحدق بنا وأنه مصيبنا لامحالة، وقد فاتحت السلطان بدر في هذا وطلبت منه تعزيز الحامية وتقوية الجيش والدفاعات، ووعدني خيراً ولكن سياساته تجنح لمهادنة البردجيز واستمالتهم ولو بدفع لهم شيئاً من خراج المدينة، وها هو السلطان بدر غادر الشحر ومعه كل الجيش بما فيهم الترك إلى الوادي، ولم يترك لنا سوى هذه الحامية الصغيرة التي تراها.

ـ نعم يا سيدي الأمير ولكن لابد لنا من أن نعزز دفاعاتنا قبل أن يباغتنا العدو..

ـ نعم يا مبروك هذا المطلوب ولكن الأمر للسلطان فلو عملنا بدون أمره لظن أنما نستقوي عليه بتعزيزات الجيش وتسليحه، وأنت عارف الباقي يا مبروك.

ـ يا سيدي الخطر محدق بنا والعدو لن يمهلنا لترتيب وضعنا متى ما أراد مهاجمتنا، وإني أرى بأن نشرك أهل البلاد في الدفاع عنها وتهيئهم لذلك؟

ـ وكيف يكون ذلك وهؤلاء لا يتقنون القتال، وليسوا متمرسين عليه، والعدو لديه أسلحة نارية حديثة لا نملك مثلها.. إني أرى الأمر صعب جداً.

ـ ثق يا سيدي أن الأمر ليس صعباً وأن الناس في الشحر لديهم الاستعداد للدفاع عن أرضهم وعرضهم ولديهم الغيرة على دينهم والدفاع عنه، ومقاتلة الكافر المعتدي بكل ما يستطيعون ولو بأسنانهم، فعقيدتهم وإيمانهم وثقتهم بنصر الله تمنحهم القوة والصمود والبسالة، وما نحتاجه هو حث العلماء لهم على مقارعة الغازين ومقاومتهم وصدهم عن بلادهم، والمطلوب منكم تهيئة ذلك والدفع به وتوفير الإمكانيات المتاحة.

صمت الأمير مطران وأخذ يقلب الأمر والأفكار في رأسه، في حين أتى الحارس بما طلبه منه من قهوة وعصيد فوضعها بين

أيديهم وصب لهم في أقداح القهوة وقدمها لهما، فأشار الأمير للشيخ بأن يتفضل ويتناول ما وضع أمامه، فارتشفا القهوة والصمت يخيم عليهما وتناولا لقيمات من العصيدة والصمت مطبق والأذهان سارحة في التفكير والتدبير، وقطع ذلك الأمير بقوله:

ـ يا مبروك ما قلته عين العقل وصواب المشورة وإني عارض هذا الأمر لعلماء الشحر وأعيانها السَّبعة أهل الشورى والرأي الرشيد، وإني مرسل إليهم ليأتوني في الضحى حتى أستشيرهم وأسترشد برأيهم في دفع أطماع البرتغاليين الغازين لبلادنا، فكن قريباً منا فإذا احتجنا لك دعيناك من مقر عملك فتأتينا في الحال .

ـ سمعاً وطاعة سيدي الأمير ستجدني طوع بنانك في كل أمر تشير به وفقك الله وسدد خُطاك ..

فأذن الأمير له بالانصراف، وانصرف مبروك يملأه الرجاء والأمل في استجابة أميره المحبوب مطران بن منصور، فقد عهد فيه رجاحة عقله وسعة حلمه وإقامة عدله، بينما قرع الأمير جرس المناداة من على مكتبه فأتاه الحارس ملبياً قائلاً: أمرك سيدي؟

قاله له الأمير: آتني بالساعي حالاً.

ردد الحارس: أمرك سيدي.

وما هي إلا لحظات وساعي الإمارة واقف بين يدي الأمير فقال له آمراً:

ـ أخبر أهل الشورى السَّبعة أني أريدهم اليوم وقت الضحى لأمر مهم جداً، واكتب أسماءهم في الورقة حتى لا تنسى أحد منهم.. هيا اكتب:

١) الشيخ أحمد بن عبد الله بلحاج بافضل.
٢) الشيخ يعقوب بن صالح الحريضي.
٣) الشيخ سالم بن صالح باعوين.
٤) الشيخ حسين بن عبد الله العيدروس.
٥) الشيخ أحمد بن رضوان بافضل.
٦) الشيخ فضل بن رضوان بافضل.
٧) الشيخ عمر بن دحران.

وما أن كتب الساعي أسماء الأعيان السَّبعة حتى انطلق متحمساً في إبلاغهم بأمر الأمير مطران في الامتثال بين يديه في ديوان السلطنة.

السَّبعة

في صباح ذلك اليوم كان ديوان السلطنة يعج بالحركة مثلما استأنفت مدينة الشحر نشاطها اليومي المعتاد فهي في أوج ازدهارها، وإن كانت هناك منغصات القرصنة البرتغالية تقلق الحركة التجارية والاقتصادية للمدينة إلا أنها لم تدخل بعد في مواجهة مباشرة مع البردجيز الطامع فيها وفي خيراتها، وهو مصدر خوف وقلق لأهلها وتجارها وحكومتها السلطانية، ولكن احتياطات المدينة تضمن إنعاش الحياة الاقتصادية فيها لعدة سنوات، فالشحر لكونها ميناء رئيسياً وبوابة جنوبية رئيسية لشبه الجزيرة العربية، فالواردات فيها كبيرة ومخازنها كثيرة وفيها من تجار بلدان العالم من يمثلهم حتى العدو البرتغالي له فيها تجار وعيون بصاصة فيها، وخبراء في دراسة أحوال المدينة منهم في ذلك (كاستنهيدا) الذي عده الدارسون مؤرخاً وإنما هو في الحقيقة مقرراً ودارساً لوضع الأحوال السياسية التي تريد مملكته غزوها فينغرس في ذلك المجتمع ويرفع تقاريره لقائد الحملة البرتغالية ليحيطه علما بكل تفاصيل المدن،

وقد مكث هذا الـ (كاستهيدا) في مدينة الشحر نحو عام يتخابر فيها مع القائد العام للأسطول البرتغالي (لويز دي منزيس) ورفع منها له تقاريره، ومنها ما يزيد طمع الغازي ويفتح شهيته، وقد وشجعه على غزو المدينة حينما كتب له قائلاً: (الشحر مدينة كبيرة بها الكثير والكثير جداً من التموينات كما توجد بها كل أصناف الفاكهة المتوفرة لدينا في إسبانيا.. إنها ميناء تجاري عظيم، بها بضائع لا تحصى أنواعها، وبها أعداد كبيرة من الخيل وكميات من العطور والبخور، ويفد إلى الشحر بين من يفدون إليها للتجارة المسلمون الهنود أهالي مالابار وكمبايا، وفي هذا الميناء تقضي السفن فصل الشتاء لأنها لا تستطيع المرور بباب المندب ولأن الرياح الغربية تهب ضدها).

ويدرك الأمير مطران وأعيان الشحر مطامع البرتغاليين في بلادهم ونواياهم في غزوها واحتلالها، ولذا لابد من مواجهة هذا الخطر القاتل بتوحيد صفوف مواطني السلطنة والاستعداد لمواجهة هذا الغزو ودحره، فكان لزاماً لقاء أهل الشورى واستعجالهم في تباحث هذا الأمر والترتيب له، ولم يطل انتظار الأمير مطران في ديوانه كثيراً إذ دخل عليه حاجبه ليخبره بأن الشيخ أحمد بافضل بالباب فأذن له في الحال بالدخول ثم تتابع بقية السَّبعة خلفه

واتخذوا مقاعدهم، حياهم الأمير مرحباً بهم ومسلماً عليهم، ثم بادرهم بقوله:

ـ دعوتكم اليوم لأمر مهم ومستعجل فأنتم تعرفون نوايا البردجيز الذين يطوفون ببحر العرب وتصلكم أخبارهم من تقطع للسفن وحرقها وقتل بحارتها وسبايتهم للرجال والنساء ومهاجمتهم للموانئ والبلدان المطلة على البحر، وقد وصلنا الكثير من أخبارهم وأفعالهم، وأظن أن الشحر لن تسلم من شرهم وأذاهم وليس في الشحر سوى حامية صغيرة، أما الجيش فقد اصطحبه السلطان بدر إلى وادي حضرموت في مهمة لا أعلم متى أمدها، ولا بد من تدارس الأمر معكم للدفاع عن المدينة إذا داهمها غزو طارئ من البرتغاليين، فماذا ترون أنتم؟

فطن المشايخ إلى خطورة الموقف، وزاد انتباههم حديث الأمير مطران، فلابد من التدبير الحكيم الذي يجنب البلاد ويلات الحرب ويصد عنها الغزاة الطامعين، فقال الشيخ أحمد بأفضل:

ـ الحمد لله الذي جمعنا هنا لنتدارس هذا الأمر العظيم ونعمل حسابنا لهذا الخطر الوخيم، وإني لا آمن مكر الكفار فهم لا عهد لهم إن عاهدناهم وحتى لو دفعنا لهم الجزية، فسوف يسعون إلى ذلنا واستعبادنا وربما ينتهكون محارمنا ويتذرعون بكل حيلة

لقتلنا، وفعائل البردجيز وحوادثهم علمنا بها ووصلتنا أخبارهم فهم منذ سنوات يعيثون في البحر والبر ولم تتغير أساليبهم بل يزدادون عنجهية وطغيانا، ومثلما قلت يا أمير مطران، فإن الشحر في مرمى أهدافهم وقد تناوشوا المدن والقرى من حولها وفعلوا أفاعيلهم فيها، وإني أرى الاستعداد لقتالهم وصدهم واجباً شرعياً على كل مسلم قادر من أهل البلد.

قال هذا الشيخ وصمت، فأشار الأمير مطران إلى بقية رجال الشورى قائلاً لهم:

ـ وأنتم ماذا ترون؟

قالوا جميعهم وبصوت واحد: (نحن رأينا من رأي الشيخ أحمد ونوافقه فيما قال).

قال الأمير مطران: إذن علينا العمل لحث الناس واستجابتهم لنداء الجهاد للدفاع عن دينهم وأرضهم وعرضهم، فكيف ستعملون في هذا؟

قال الشيخ يعقوب الحريضي: نحن لها ولن نرضى بأن تطأ قدم الغازي الكافر أرضنا وبلدنا وسنقاتلهم بكل ما أوتينا بقوة، وأجزم بأن الناس رأيهم من رأينا فهم أيضاً يتوجسون من أخبار

البردجيز ويتابعون سطوهم، وهم يحتاجون إلى قليل من التحريض وشحذ الهمم وهذه مهمتنا الأولى سنباشرها من حين خروجنا من الديوان إلى الشارع، وسنحثهم في مجالسهم وأسواقهم ومساجدهم.

تمتم الشيوخ والأمير بصواب رأي الشيخ يعقوب، وأردف الشيخ أحمد بن رضوان قائلاً:

ـ نعم الرأي والمشورة، فهذه هي مهمتنا الأولى، وبقية المهام على الأمير مطران بأن يرتبها فهذه حرب والحرب لها مؤنتها وسلاحها.

قال الأمير مطران: نعم سنعمل على هذا مع توفيره، ولكن الذي أريد أن أضمنه أولاً استعداد الناس للقتال والدفاع عن بلدهم.

قال الشيخ سالم باعوين: هذا سيتجلى لنا بعد دعوة الناس لليقظة والجهاد والدفاع عن أنفسهم، وسنرى أثر ذلك، ومثلما قال الشيخ يعقوب فالناس لديها الغضب الكبير على فعائل البردجيز.. و.

ولم يكمل الشيخ سالم كلامه حتى طُرق الباب واستأذن الحاجب بالدخول، فأذن له الأمير وفي نفسه شيئ من مقاطعة الحاجب لاجتماعه وخلوته مع السَّبعة أهل الرأي، فقال للحاجب:

ـ ما عندك حتى تقاطعني وقد أوصيت ألا يزعجني أحد؟

قال الحاجب: نعم يا سيدي ولكن وصل الحمام الزاجل ومعه رسالة وأنت أمرتني بأن لا أؤخر أي رسالة يأتي بها في أي ظرف.

تحفز الأمير مطران ومد يده إلى الحاجب وأخذ الرسالة وقال للحاجب:

ـ صب القهوة للضيوف وقدم الماء.

استجاب الحاجب وعمل ما أمر به، بينما أخذ الأمير مطران في فتح الرسالة وقرأ ما فيها، وأمر الحاجب بإغلاق الباب، ثم التفت إلى السَّبعة الكبار وفي عينيه شيء من الجزع قائلاً لهم:

ـ هذه رسالة من أمير المشقاص عطيف بن علي بن دحدح يقول فيها، بأن الأسطول البرتغالي من سبعة سفن مروا ببحر قصيعر وأحرقوا ثلاث سفن قبالة قصيعر ثم اتجهوا مبحرين نحوكم فخذوا حذركم)، هذه رسالة عطيف أتت في الوقت المناسب فقد جدَّ الجد واقترب الخطر.

قال الشيخ حسين العيدروس: علينا الإسراع في التحرك يا أمير مطران ليس في الوقت متسع، سنحث الناس نحن وأنت تعد العدة وتجهز المؤن.

زكى بقية أهل الشورى كلام الشيخ حسين قائلين:

ـ نعم هذا ما نتفق عليه.. هذا ما نتفق عليه.

قال الأمير مطران: وهذا ما أوافقكم عليه. ثم نادى الحاجب وقال له: أدخل كاتب الديوان.

فدخل كاتب الديوان وبيديه سجل كبير، فأومأ الأمير إليه بأن يجلس بجانبه وقال له اكتب:

ـ في يوم الأربعاء الثامن من ربيع الثاني عام ٩٢٩ هـ، اتفق الأمير مطران مع أهل الشورى السَّبعة في العمل على حماية الشحر من أي غزو أو انتهاكات من البردجيز بمساعدة الأهالي والمقيمين فيها للدفاع عن أرضهم وعرضهم، وعليه نبصم.

وأخذ الأمير السجل وبصم عليه ثم دفع به إلى السَّبعة فبصموا مستعينين بالله ومتوكلين عليه، وأذن لهم الأمير بالانصراف ومباشرة مهامهم فانصرفوا.

الخبر

حينما انتهى أمير البحر من عمله في ميناء الشحر وقد كاد وقت الظهر أن ينقضي امتطى صهوة حصانه الأشهب بعد أن أسرجه له جندي الحراسة وانطلق عائداً إلى بيته الذي لا يبعدُ كثيراً عن مركز عمله ومقره، فوصله في دقائق معدودات، وكانت سلمى في انتظاره ذلك اليوم بقلق بالغ، وهي تشعر بعاطفة الأنثى بأن زوجها تنتظره مهمات جسام ومسئوليات على عاتقه كثيرة، وأن الوضع العام لا يطمئن وأن الخطر يحدق بمدينة الشحر، وذلك مما يضاعف متاعب زوجها ومشاغله، وعندما تجاوز الشيخ مبروك عتبة باب داره تلقفت منه خادمته ما كان يحمل معه من متاع جلبه للبيت في طريقه، أما هو فربط خطام حصانه في الوتد الخاص به ودخل باشاً للقاء زوجته الحبيبة سلمى، وكانت سلمى في ثوبها الزاهي وقد أسدلت على كتفيها شعرها الطويل بعد أن ضوعته بالمسك وزيت العنبر، فكانت رائحته العبقة تسللت إلى خياشيم زوجها فاستنشق عبقها وألقى السلام ومد يديه محتضنا لها واصطحبها إلى داخل غرفته، وأخذت تساعده في التخلص من حزامه وسيفه وجنبيته الحضرمية الفضية التي يتمنطق بها وهي عنده تعني الكثير

من مهابةٍ وقدرٍ ورفعةٍ، وحين فرغ من خلع ملابسه وارتدى ثياب البيت قال لها في تودد:

ـ ها.. ما غداؤك اليوم وطبيخك؟

ـ كل ما يسرّك عزيزي.. لدينا أرز وخبز قضوض.. وغضر مدهور وثمد مكشن وصانة.

ـ يا سلام.. هيا فإني جوعان وأنتِ فتحتِ شهيتي فأدركيني..

ندت عن سلمى ضحكة خفيفة وتمتمت قائلة: حاضر على أمرك.

وصاحت في خادمتها منادية:

ـ يا شمة هل السفرة جاهزة؟

ـ نعم جاهزة سيدتي..

أخذت بيد زوجها إلى غرفة الطعام فإذا السفرة مليئة بالأطباق الرئيسية والمكملة وبالفواكه المتعددة منها الطرية المحلية والمجففة والمخللة المستوردة من خارج حضرموت، حين رأى ذلك حمد الله وجلس على المائدة وبدأ يتناول غداءه ويتلذذ بأكله وكلما أكل لقمة شكر الله وتغزل بحلاوتها ومهارة زوجته، وهي مسرورة تُكسر له الخبز وتقدم له الآنية تلو الآنية، ولكن جوفها يتحرق لسماع مساعي زوجها في لقائه مع الأمير، فقالت له في تؤدة:

ـ لعلك يا عزيزي التقيت بالأمير مطران وأراحك مما أقلقك؟

ـ نعم التقيتهُ ووجدت عنده مثلما عندي من قلق وحرص على صد هذا الغزو المحتمل، لاسيما وأن العدو كان بالأمس في المشقاص وأحرق ثلاث سفن لأهلها وتوجه بعدها إلينا..

ـ ولكن ماذا أعددتم لهذا؟

ـ دعاء الأمير مطران اليوم أهل الشورى السَّبعة الكبار واتفقوا على دعوة الناس للتصدي لأي اعتداء طارئ على المدينة، فقاموا جميعهم وتوزعوا على مساجد الشحر الكبيرة وخطبوا في الناس عقب صلاة الظهر مذكرين لهم بالجهاد في سبيل الله والذود عن الأرض والعرض، كما حثوا طلبتهم في حشد وتحريض أهل الشحر والمقيمين فيها للاستعداد إذا دعا الداعي وحان وقت النفير.

ـ هذا لا يكفي أبداً يا عزيزي لابد من تسليح هذه الناس بما يواجهون به عدوهم وتأمين مؤنهم وغير ذلك..

ـ نعم هذا ما تكفل به الأمير مطران وسوف يعمل على ترتيبه.

ـ وأرجو أن تعملوا لنا معشر النساء ترتيباً يليق بنا ففينا الممرضات المسعفات وفينا الطباخات الماهرات وفينا العاملات المتفانيات، فلا تنسوا ذلك.

أبهر الشيخ مبروك ما سمعه من زوجته من كلام، فأسفر ثغره عن ابتسامة الرضا والفرح بما قالت وهز لها رأسه موافقاً ومتأملاً، وبينما هما منشغلان بالأكل والحديث المدار بينهما إذ دخلت الخادمة شمة بعد أن طرقت الباب للاستئذان، وقالت للشيخ مبروك:

ـ سيدي.. جندي الأمير بالباب يريدك..

نهض الشيخ مبروك في عجلة من أمره وغسل يديه من بقايا الطعام وتوجه إلى الجندي الذي بالباب، فأخبره الجندي بأن الأمير مطران يريده في الحال، فارتدى ملابسه وتقلد سيفه وأسرج خيله وانطلق إلى الأمير في ديوان السلطة، وحين وصوله وجد القادة يتوافدون، وأعيان المدينة يصلون بعرباتهم التي تجرها الخيول، فولج إلى الديوان فوجد الأمير متصدراً في موضعه فجلس الشيخ مبروك على يساره وجلس الشيخ أحمد بافضل على يمينه، ثم اكتمل عدد الحضور فخاطبهم الأمير مطران قائلاً بعد السلام:

ـ دعوتكم لهذا الاجتماع الطارئ لأخبركم بأن رسولاً وصل قبل ساعة من مدينة الحامي وهو الشيخ سعيد بن عروة وهو هذا الذي بينكم، وقد أخبرني بأن البردجيز قد وصلوا الحامي ودخلوا ميناءها وأحرقوا خمس سفن بعد أن نهبوا ما فيها وقتلوا بعض

بحارتها وأسروا آخرين، ثم نزلوا الشاطئ وأحرقوا بعض القوارب والعباري الموجودة على الشط، وعادوا إلى سفنهم بعد أن نهبوها وأحرقوا بعض المستودعات والحوانيت، ولا شك في أنهم متجهين إلى الشحر وسوف يعملون مثلما عملوا فيها وربما أكثر، لهذا نريد الاستعداد والتصدي لأعمالهم هذه ، وأريد من كل من لديه رأي أو فكرة يضعها الآن لنتدارسها ونوافق عليها جميعاً فنحن لا نعرف ماذا يريد البردجيز فعله، وعلينا وضع كل الاحتمالات لهذا الوضع الخطير.

ضج الحاضرون بما سمعوه وتبادلوا بينهم الأحاديث واشتعلت نار الحمية والنخوة وانبرى الشيخ أحمد بافضل خطيباً في القوم محدثاً لهم عن فعائل البرتغاليين خلال العشر السنوات السابقة، وأن كل البلدان التي على المحيط وبحر العرب لم تسلم من قتلهم ونهبهم وإحراقهم بنسم الكافر (البارود) ولا أظن الشحر إلا في حسابهم ومن أهدافهم ،وإني أرى أن نعد لهذا عدة من الآن ونرسم خطة الدفاع عن المدينة بدقة متناهية حتى لا نترك شاردة ولا واردة إلا أتينا عليها، وقد لقينا تجاوباً من أهل الشحر والمقيمين فيها في الجهاد والقتال، وأنهم رهن إشارة الأمير مطران ومقادمتهم.

هز الأمير مطران رأسه موافقاً وقال معقباً:

ـ نعم وها أنتم اليوم أعيان الشحر وقادة أمنها ومقادمة الحارات وشيوخ الجاليات مجتمعون من أجل الاستعداد لأي احتمال، وأي غارة قد يشنها علينا البرتغاليون، وإني مرسل للسلطان بدر بخبر البردجيز وما فعلوه في قصيعر والحامي واتجاههم للشحر وأستعجله في العودة إليها في أسرع وقت، وأطلب منكم الآن تهيئة الناس للدِّفاع عن أنفسهم وبلدهم، وإذا طرأ أي أمر سوف أبعث إليكم لأطلعكم عليه، فاستعينوا بالله وتوكلوا عليه.

أبدى الجمع استعدادهم ووقوفهم صفاً واحداً يتقدمهم الشيوخ السَّبعة أهل الشورى، وانطلقوا وقد أحزموا أمرهم لحماية مدينتهم والدفاع عنها.

أما أمير البحر الشيخ مبروك فقد حمل توجيهات الأمير مطران وانطلق لتعزيز المراقبة والحراسة واستحكام الدفاعات البحرية، وأمره برفع التقارير عن الحالة الأمنية والتحركات البحرية أولاً بأول، فأمضى عصر ذلك اليوم الثامن من ربيع الثاني في عمل مضنٍ إلى وقت متأخر من الليل.

ليلة البردجيز

أبحر الأسطول البرتغالي بعد شن غاراته على مدينة الحامي، متوجهاً غربا، وفي عرض البحر أمرهم قائدهم (لويز دي منزيس) بالتوقف للاستراحة والاحتفال بالغارات التي شنها على قصيعر والحامي، فتقاربت سفن أسطولهم وتوافد ربابنة السفن وقادة الجند إلى سفينة القائد (لويز)، ونصبت في السفينة الكبرى وعلى سطحها موائد الطعام وزجاجات الخمر فأكلوا وانتشوا، ثم دعا القائد (لويز) الفرقة الموسيقية والراقصات وفي هن إسبانيات وهنديات وأخريات من جنسيات أخرى، وبدأ العزف والغناء والرقص من أول الليل ودارت الكؤوس مترعة وانتشى الجنود إلى نهاية الثلث الأول من الليل وأمر القائد (لويز) بإنهاء الحفل وانصرف الجنود إلى مضاجعهم مترنحين وفيهم ذو الفحولة وفيهم الغلمان المردان، واستبقى القائد ربابنة السفن وقادة الجند واصطحبهم إلى غرفة العمليات بالسفينة وعقد معهم اجتماعاً بدأه بقوله:

ـ سوف نبيت هذه الليلة هاهنا وعند الفجر سنبحر إلى ميناء الشحر وإنه من هاهنا يرى بالمنظار، وأراه يعج بالسفن المختلفة وقد رصدناها بالمنظار عصر هذا اليوم من هاهنا، وفيها خمس سفن إسبانية راسية فيه، وعدد آخر من عدة بلدان أوروبية وآسيوية وأفريقية عليها ترفرف أعلامها، وأنتم تعرفون أهمية هذه المدينة وموقعها العظيم، ففيها مغانم كثيرة وأموال لا حصر لها، وهي بوابة حضرموت فمن ملكها فقد ملك حضرموت وتحكم فيها، وهي حصينة وأهلها أشداء ربما نلقى منهم بأساً شديداً في حربنا معهم، ولكن لابد لنا من إخضاعهم واحتلالهم حتى نقطع شريان العون والمدد الذي يأتي من عندهم إلى عدن وقنا والمهرة، فلولا مدد هؤلاء الشحارية لكان لنا سلطاناً على كل البلدان المطلة على بحر العرب، ولكنا نحن أسياد هذا البحر ولا منازع لنا...

قال أحد القادة مقاطعاً القائد (لويز):

ـ نستطيع يا سيدي أن نخضعهم فلدينا من الأسلحة الحديثة ما ليس معهم، ولدينا من القوة ما ليس عندهم، فلن يستطيعوا صدنا...

ـ هذا بلا شك الذي سوف يحصل وما نريده وسوف نحققه ولكن نحسب لكل شيء حساب، والنصر الذي يأتينا بأقل الخسائر هو نصر كبير.

أفرد القائد لويز صدره واستنشق مليئاً وزفر زفرات أخرج معها شحنات القلق والترقب، وبسط يديه وهو يستأنف الحديث للقادة:

ـ أتتني الأخبار من الشحر بأن حاكمها السلطان بدر أبو طويرق غادر الشحر منذ أيام قليلة مع جيشه إلى داخل حضرموت لإخضاع المتمردين على سلطته، وإني أرى الفرصة سانحة لنا لأخذ الشحر والاستيلاء عليها بأقل التكاليف والمجهود الحربي، ولكني أخشى بسالة رجال القبائل فهم لا يهابون الموت ويتلقون طلقاتنا النارية بصدورهم العارية، فيزيد الآخرين من رجالهم الحمية ووتيرة الانتقام فتراهم كالجن المردة.

قال أحد القادة في تعجب موجها سؤاله للقائد لويز:

ـ إذن كيف نتعامل مع هؤلاء ونخضعهم بسهولة؟

قال القائد لويز:

ـ لا تقلق هؤلاء الصناديد لن نجدهم الآن في الشحر فقد ذهبوا إلى عدن للدفاع عنها حينما هاجمها القائد (لوبو سورز) ووجد منهم مقاومة ودفاعاً شديداً وهم عدد (١٠٠٠) مقاتل من رجال الحموم والمهرة أبقاهم الأمير مرجان الظافري ووطنهم في عدن بعد استقدام عوائلهم، ومن تبقى من أهل الشحر لن يقووا على الصمود أمام قوة بنادقنا ونيران بارودنا.

قال هذا القائد لويز ثم مد يده إلى جواره وأخرج خارطة على رقعة جلد منعمة وأفردها على الطاولة أمامه وأشار لقادة الجند بأن يطلعوا عليها قائلاً لهم:

ـ هذه خريطة مدينة الشحر وأنتم ترونها، هي بها عشر حارات صغيرة مليئة بالسكان وكلهم مدنيين أهل حرف يدوية وصيد أسماك وتجارة وأعمال حرة أخرى، أما الحامية المتبقية فيها فقد بلغني قلة عددها وضعفها فمجملهم من كبار السن، أما تحصيناتهم فهي هذه القلاع المرسومة في الخريطة وهن أربع فقط أقواها هما القلعتان المطلتان على البحر، الأولى شرق المدينة يقال عليها قلعة المجرف القديمة، والأخرى غرب المدينة تسمى القلعة الشبامية وهي بحارة الرملة، أما هذه القلعة فهي قلعة الراشدي شمال شرق المدينة والأخرى قلعة الكودة، وهنا هذه أسواق المدينة، هنا سوق الطعام، هنا سوق الخيل، هنا

سوق الغنم، هنا سوق التمر، وهنا سوق العبيد، وهنا سوق السمك، وهنا متاجر الفضة وصاغة الذهب، وهنا سوق العطارة، إذا لم نلقَ مقاومة تذكر فالاستيلاء على هذه المدينة سهل وميسر.

قال أحد القادة وقد خالجه شعوراً بالزهو والقوة:

ـ لن نرحم أحداً يقف أمامنا يا سيدي فمصيره الموت، وأموال أهل هذه البلدة سوف نسلبها، ومن بقي حياً سنجعلهم عبيداً لنا.

قهقه القائد لويز وهو يرى الإصرار الحاسم يشع من أعين قادة جيشه، ويعانق توهج عاطفة الانتقام الصادرة من صدورهم والمرتسمة على وجوههم، ثم تابع القائد لويز قائلاً:

ـ فليبارككم الرَّب ويهب لكم النَّصر، غداً سوف نريهم قوتنا وشراستنا، سوف أرسل لك أيها القائد (تي بارا) إلى حاكم الشحر لتحمل معك رسالة مني نطالبهم فيها بإرث وأموال التاجر البرتغالي (الفنسو دي فيجا) الذي مات عندهم قبل خمسة أشهر وأخذ السلطان بدر أمواله، سنجعلها حجة لغزوهم، سوف يكون هجومنا موزعاً أربع فرق الفرقة الأولى تستولى على الميناء ومبنى الجمارك والبحرية، والفرقة الثانية تتجه لإسقاط

قلعة المجرف والاستيلاء عليها، الفرقة الثالثة تتجه لإسقاط القلعة الشبامية، أما الفرقة الرابعة ستتوجه إلى قلب المدينة لإسقاط قصر السلطان والاستيلاء عليه، ومن قصر السلطان سوف تتلقون مني الأوامر وتنفذونها بالحرف الواحد، والآن انصرفوا لنبحر فجر الغد إلى ميناء الشحر فلم يبقَ من الليل إلا القليل.

استجاب القادة لأمر القائد الأعلى وانصرف كل منهم إلى مخدعه وغطوا في نوم عميق.

مساء الشحر

بعد انتهاء الاجتماع الطارئ المنعقد في الديوان الأميري، اتجه أمير البحر الشيخ مبروك حنين إلى ثكنة جنوده البحرية وجمعهم وأخبرهم بتصاعد الموقف وقرب البرتغاليين من شواطئ الشحر، وحثهم على اليقظة وتشديد المراقبة وعزز برج المراقبة بمراقبين آخرين إضافة للموجودين عليه، كما أرسل ثلاثة زوارق بحرية للتوغل في البحر ورصد أي سفن قادمة إلى الشحر وإخباره في الحال، فتحركت الزوارق الثلاثة كل منها أخذ اتجاها مغايراً للآخر وذلك لتغطية المجال الواسع للمراقبة.

وبعد ساعة عادت الزوارق وأخبر أحدها بأن في بحر الأربعين شرقي قبالة العيص ترسو سبع سفن برتغالية ويقيم بحارتها على سطوحهن احتفالاً فيه رقص وغناء، حينما سمع أمير البحر مبروك حنين بهذا الخبر هرول صاعداً إلى برج المراقبة وأخذ الناظور ورأى بأم عينيه تلك السفن الراسية وتيقن من عددهن وقدر بما تحمله من عتاد وعدد الجنود، وانطلق بعدها مسرعاً إلى الأمير مطران وقد قاربت الشمس على المغيب وبدت أطراف الشفق الأحمر تتسلل إلى الأرض حاملة معها سكون الليل، فوجد الأمير مطران يستعد لصلاة

المغرب فأخبره بوجود السفن البرتغالية ومارآه منها وما رصده وما استنبطه من حالهن وهن جاثمات في موضعهن المذكور، استمع الأمير مطران لكل ذلك وزاد توتره فلا محالة في أن البرتغاليين يقصدون الشحر، ولعلهم بترويهم هذا إنما يمهدون لغزو المدينة لا لغارة عابرة على سفنها وشاطئها.

وأصبح ذلك عنده يقيناً، وعليه اتخاذ التدابير المطلوبة ولكن في نفس الوقت عليه التروي وأن لا يبدي فعلاً إلا رداً للفعل الصادر منهم، ولو تمكن من استمالتهم ومهادنتهم فسوف يكون أسلم للسلطنة وأهل الشحر من أي مواجهة قد تكلفهم الكثير، كانت كل هذه الأفكار والهواجس تشغل فكر الأمير حتى حينما استوى لصلاة المغرب خلف الإمام فلم يتحرر منها، وبعد أن انقضت الصلاة مباشرة، أخذ بيد أمير البحر الشيخ مبروك جانباً وهمس له سارا:

ـ علينا يا مبروك التروي وانتظار ما يكون في صباح الغد ولتكن السياسة قبل الحرب فإن لم تفلح السياسة فلا مناص من الحرب، وإني لو استملت البرتغاليين وأرضيتهم ببعض المال والهدايا فذلك أسلم لنا، ولكن علينا اليقظة والاستعداد التام لكل طارئ، وعلى كل جنود البحرية الاستنفار من هذه الساعة فلا يغادرون أماكنهم لعذر أو إجازة، وتكون أنت على رأسهم

ملازماً فلا تغادر مبنى القيادة، وسآتيكم أنا بعد صلاة الفجر مباشرة وأمكث معكم لترقب ما يحدث، فانطلق ورتب أمورك.

تلقى أمير البحر أوامر الأمير مطران وحياه، وانطلق على ظهر فرسه قاصداً بيته، وحينما صهل حصانه لدى وصوله إلى باب داره نهضت زوجته سلمى وابتدرته إلى الباب ولحقت بها خادمتها شمة فاتحة مغلاق الباب، فولج الشيخ مبروك من على عتبة الباب مُسلماً، ووجد سلمى أمامه فافتر ثغره عن ابتسامة لطيفة فهفت إليه مصطحبة ذراعه ضامته إلى صدرها وقادته إلى داخل البيت تتبعهما الخادمة شمة، فقالت له سلمى بشيء من التدلل:

ـ تأخرت علي فقلقت عليك يا حبيبي...؟

سر لقولها مبروك فأخذها ضاماً إلى صدره وقال لها هامساً:

ـ عليك ألا تقلقي علي بعد اليوم، وعليك الاستعانة بالله في كل ملمة ونحن جميعاً في حفظ الله.

رفعت سلمى بصرها إليه لتستشف ما به فهناك أمر لعله يخبرها به، ولكن مبروك لم يدعها طويلاً في التفكر والاستنتاج فبادرها بقوله:

ـ يا سلمى لدينا الليلة حالة طوارئ، وإني أتيت البيت لاستحم وأتعشى وأبدل ثيابي وآخذ احتياجاتي لنرابط في معسكر البحرية حتى ينجلي الأمر، فأعدي لي ما أحتاجه في عجل وقولي لـ(شمة) تحضر لي العشاء فليس لدي متسع من الوقت.

تفهمت سلمى وضع زوجها وسارعت فأحضرت منشفته ومستلزمات الغسل وأخذت تساعده في خلع ملابسه، ملازمها الصمت، فاغتسل الأمير وأكل عشاءه وتجهز ووضع كفيه على رأس سلمى وقبل وجنتيها التي بدأت كوردتين حمراوين ناصعتين، وقال لها هامساً:

ـ هل تريدين شيئاً يا عزيزتي؟

ـ أريد سلامتك يا حبيبي.. هل وصل البردجيز إلى الشحر؟

ـ لا لم يصلوا بعد.. ولكن عيوننا رأتهم على مقربة من الشحر واقفين في البحر، ولعلهم يأتون إلى الشحر في هذا الليل أو الصباح أو ينصرفوا الله أعلم.

قال مبروك هذا الكلام وودع زوجته وامتطى فرسه فدخل معسكر البحرية، وأمر باستدعاء جميع الجند وأعلن حالة الاستنفار في البحرية.

أما خبر البرتغاليين وإحراقهم سفن أهل الحامي فقد سرى بين الأهالي عصر ذلك اليوم وليلته وأصبح أحاديث أهل المدينة يتداولونه فيما بينهم في مجالسهم وفي مساجدهم وعلى دككها وفي منتدياتهم الليلية، وساد قلق بين الأهالي وخوف وترقب، إلا أن سعي السَّبعة الحكماء في المدينة ومخاطباتهم للناس وحثهم للتصدي لأي غزو محتمل بث في أرواح الأهالي الشيء الكثير من العزيمة والغيرة والحمية للدفاع عن الدين والأرض والعرض، وليلتها بادر بعض الأهالي في ادخار التموين وشراء بعض المواد الضرورية تحسباً لذلك الخطر الذي يطل برأسه على مدينتهم الآمنة، فشهدت أسواق الشحر حركة غير عادية، وعزز بعض الأهالي أبواب بيوتهم، كما عزز التجار أقفال حوانيتهم ومستودعاتهم وزادوا عدد حراسها عن المألوف، وبادر عقال الحارات في تعيين حراسات على حاراتهم من قبل سكانها وكثفوا مراقبة البحر تحسباً لأي تسلل ليلي للأعداء وتمركزهم في المدينة، فأشعلوا على طول الساحل عدداً كبيراً من المشاعل لترهب الغازي إذا رآها فيحجم عن أي فعل ويتيقن بأن أهل المدينة في يقظة تامة.

صباح التاسع من ربيع الثاني

ما كاد فجر اليوم التاسع من ربيع الثاني عام ٩٢٩ هجرية يشق سجاف الليل ويطل على الدنيا بالضياء، حتى أعطى القائد البرتغالي (لويز) أوامره لجنوده بالتجهز والإبحار إلى ميناء مدينة الشحر، فتحرك الأسطول البرتغالي الكبير في سبع سفن كبيرة بعدتها وعتادها فتوجه إلى الميناء تتقدمهن سفينة القائد (لويز) الذي عمد مقدمة السفينة وفي يده المنظار يستطلع الطريق ويراقب الحركة .

وما إن بزغ ضوء الصباح في تشقاقته الأولى حتى رأى برج المراقبة طلائع الأسطول البرتغالي متجهة إليه، فأرسل الخبر إلى أمير بحر الشحر الشيخ مبروك الذي لم يفارق سجادته بعد صلاة الفجر حيث يقرأ أوراده الصباحية مثلما تعود في صباح أيامه، فنهض مسرعاً واعتلى برج المراقبة وأخذ المنظار وقد لاحت له كل السفن السبع للأسطول البرتغالي، فأمر بضرب طبل الإنذار والاستعداد في معسكر البحرية فنهض الجنود وتجهزوا وأخذوا مواقعهم، وأمر كل السفن التجارية الواقفة على ميناء الشحر بالتحرك إلى ميناء الضبة

للاحتماء وأخذ الحيطة، ثم أرسل الشيخ مبروك إلى الأمير مطران رسولاً ليطلعه على مقدم السفن البرتغالية، فاستنفر الأمير مطران حراسة الديوان وحامية المدينة وركب عربته الأميرية التي تجرها الأحصنة وانطلق إلى معسكر البحرية فتلقاه أمير بحر الشحر الشيخ مبروك، وصعدا معاً برج المراقبة وظلا يراقبان حركة الأسطول البرتغالي وهو يتقدم شيئاً فشيئا إلى أن اقترب كثيراً من الميناء فتوقف الأسطول، فأخذ الأمير مطران يراقب بالمنظار، ويرى بأم عينيه حركة الجنود البرتغاليين على ظهر سفنهم، ويرى قائد أسطولهم وهو في المقدمة ينظر من منظاره إلى ميناء الشحر ويراقب الحركة هو أيضاً، ومكث الأسطول في حالة سكون قرابة ساعة، في حين أرسل أمير بحر الشحر قاربين تمركزا في مدخل الميناء للحراسة والإرشاد البحري، وبعد ساعة من الوقوف الساكن لسفن الأسطول البرتغالي أخرج القائد لويز قارباً إلى عرض البحر وبه ضابط يحمل رسالة وجنديان يرافقانه، رأى الأمير مطران ذلك من مكانه فقال للشيخ مبروك:

ـ أرى يا مبروك أن القارب القادم يحمل رسالة من قائد الأسطول، فلنتلقاه داخل المعسكر ونرى ما معه ..

قال مبروك وقد رأى ذلك:

ـ نعم يا سيدي إنه كذلك، ولكن أستحسن أن تلتقي الرسول في ديوان السلطنة ليرى هيبة السلطنة وقوة شكيمتها فينقل ذلك إلى قائدهم فيرتدع عن أي سوء يريده بالشحر وأهلها.

ـ صدقت يا مبروك.. هذا أفضل وأحسن، وإني سوف أتحرك الآن حالاً إلى الديوان، وسوف أنثر على جنبات الطريق عدداً من جنودنا لعلهم يدخلون الرعب في قلوب البردجيز.

ـ وهو كذلك سيدي..

انطلق الأمير مطران إلى ديوان الأمارة، وذهب الشيخ مبروك إلى مكتبه بعد أن أمر الجنود بإحضار البرتغاليين حال وصولهم إلى مكتبه، وقد تلقى قاربا الحراسة القارب البرتغالي وصاحباه إلى ساحل البحر بالميناء، وسلما من فيه لجنود البحرية على الشط، وأدخل الوفد البرتغالي إلى أمير بحر الشحر فتلقاهم بالترحيب واستفسر عن قدومهم فقال الضابط (تي بارا):

ـ إنني أحمل رسالة من القائد لويز إلى السلطان بدر

قال الشيخ مبروك: السلطان بدر غير موجود في المدينة ولكن أعطوني إياها لأسلمها له.

قال الضابط البرتغالي: لا لن أسلمها لك، ولكن نسلمها لمن ينوب عن السلطان..

ـ لك ذلك، سوف أصطحبك إلى الأمير مطران حالاً..

دعا الشيخ مبروك بالعربة فأحضرت وصعد فيها مع الوفد البرتغالي، وشق طريقه إلى الديوان الأميري، وقد رأى الضابط البرتغالي في طريقه يقظة الجند على قلة عددهم، ورأى حوانيت المدينة وهي مليئة بالبضائع وحركة الناس كبيرة في ساعات الصباح الأولى، فحين دخل على الأمير مطران ألقى التحية وأخبره بأنه مرسل من القائد (لويز دي منزيس) ويحمل إلى السلطان بدر رسالة، فأعلمه الأمير مطران بأن السلطان خارج الشحر، وأنه سوف يستلم الرسالة نيابة عنه، فوافق الضابط وقال للأمير مطران:

ـ أسلمك الرسالة وأنت المسؤول عن تنفيذ ما فيها؟

ـ وما فيها أيها الضابط؟

ـ خذها واقرأها ونفذ ما فيها..

أخذ الأمير مطران الرسالة وإذا فيها: (إلى السلطان بدر .. نريد أموال التاجر البرتغالي (الفنسو دي فيجا) الذي مات قبل

خمسة أشهر في الشحر واستوليت أنت على أمواله فادفعها لنا حالاً..)

قال الأمير مطران: لا نعلم بموت هذا التاجر ولا وجوده في الشحر، ولكن سيعود السلطان بدر بعد أيام إلى الشحر ونعطيه الرسالة.

ثم كتب الأمير مطران رسالة إلى القائد البرتغالي لويز مفادها هذا، وأرفق مع الرسالة هدايا كبيرة إلى قائد الأسطول مع الضابط المرسل.

ظهر التاسع من ربيع الثاني

وما إن غادر الضابط البرتغالي المرسل ديوان الإمارة حتى أمر الأمير مطران باستدعاء الرِّجال السَّبعة أهل الشورى، فأتوا إليه سِراعا، وهم قد وصلهم نبأ الرسول البرتغالي إلى الأمير مطران، ووجدوا الأمير في انتظارهم فجلسوا إليه على الأرائك وصغوا آذانهم في معرفة مستجدات الوضع وتطوره، فبادرهم بقوله:

ـ علمتم بوصول رسول البرتغاليين إلي، وقد حمل رسالة يقول فيها أن تاجراً برتغالياً مات بالشحر قبل خمسة أشهر وأن السلطان بدر أخذ أمواله، وأنهم يريدونها كاملة لا ينقص منها شيء في الحال والساعة، هل تعرفون شيئاً عن هذا؟

نظر الرجال إلى بعضهم البعض لعل شيئاً من الخبر والعلم عند أحد منهم، ولكن جميعهم نفوا معرفتهم بهذا وأضافوا بأن هذا محض افتراء وكذبة يراد بها شر، وأخذ أهل الشورى يقلبون الأمور

ويحللون الموقف فماذا عساهم فاعلين إزاء هذا، ولكن الأمير مطران قال للسَّبعة:

ـ مادام العدو أرسل رسالة ورددنا عليه برسالة وننتظر الرد منه فهذا يدل على أن العدو ليس في عجلة من أمره، وعلينا إطالة هذا الأمر بالتفاوض معه حتى يصل إلينا السلطان بدر وجيشه فيتولى هو هذا بنفسه، وعلينا نمهلهم إلى الغد لنرسل إليهم من يفاوضهم لنكتسب وقتاً مناسباً فما رأيكم؟

قال الشيخ رضوان: نعم هذا الرأي السليم فجيش السلطنة لديه الخبرة والدراية بالحرب ومقارعة الأعداء، وعلينا أن نستعجل السلطان بدر بوصوله إلينا في أسرع وقت ممكن.

واستحسن الأمير الرأي وبقية السَّبعة، وأضاف الشيخ يعقوب الحريضي قوله:

ـ هذا قول حسن بلا شك، ولكن علينا أخذ احتياطاتنا، فنحن لن نأمن مكر العدو وهو مشهور بمكره وغدره وشواهد هذا كثيرة خلال السنوات الماضية، وما أحدثه فيها فلن ندعه يغدر بنا..

قال الأمير مطران:

ـ نحن احتطنا بالحامية والقوى البحرية، ولكن لضآلتها وقلة عددها وأكثر أفرادها من المسنين لن نصمد أمام العدو كثيراً، لهذا نفضل مراوغة العدو تفاوضياً إلى أن يصل السلطان بدر إلينا فيقوى جيشنا ويشتد عودنا، ولكن إذا حدث أمر غير هذا فعلينا جميعاً أهل الشحر مواجهتهم وصدهم عن بلادنا ، ولكن لنعمل أولاً بالسياسة ونبعث وفداً تفاوضياً إلى القائد لويز بصحبة أمير البحر الشيخ مبروك، فمن تقترحون أن يرافقه من بينكم، اثنان فقط؟

تبادل الرجال السَّبعة واختاروا الشيخ يعقوب الحريضي والشيخ أحمد رضوان بافضل، فوافقهم الأمير على ذلك وأخذوا يتدارسون الحديث الذي ينبغي أن يحملوه إلى البرتغالي ليجعلوه يلين ويصلهم إلى مرادهم.

وفي هذه الأثناء دخل حاجب الأمير ليخبره بأن أمير البحر على الباب ومعه رسول من البرتغاليين، يستأذنون بالدخول، تمتم الأمير قائلاً:

ـ اللهم اجعله خيراً.. أدخلهم..

دخل أمير البحر ومعه الضابط البرتغالي، فرحب الأمير مطران بالرسول وانتظر ما يقوله، فقال الضابط:

ـ القائد لويز يرفض هداياكم ورددناها لكم ويطالبكم بدفع أموال التاجر ألفونسو دي فيجا ويمهلكم إلى مغرب هذا اليوم وإذا لم تدفعوا حينها سنأخذ هذه المدينة عنوة، وسوف نقتل من يواجهنا ونحرق من يعترض طريقنا، وهذا كل ما عندنا.

قال الأمير مطران وقد رأى تهديد الضابط البرتغالي والشر يتطاير من عينيه:

ـ ولكنا لا نعرف أموال التاجر دي فيجا ولا مقدارها، فانتظروا يومين حتى يصل السلطان بدر فيعطيكم إياها.

ـ ولكن القائد لويز يريدها في الحال ولن يمهلكم، وهي أربعة أطنان من الذهب، وثلاثة أطنان من الفضة، وعليكم دفع قيمة عقاراته ومزارعه جميعها.

قال الأمير مطران وقد أثارته مطالب البرتغاليين:

ـ هذا غير معقول هذا طلب تعجيزي، علي أن أقابل القائد لويز بنفسي لأطلعه على هذا.

ـ القائد لويز يرفض هذا وأي تحاور بعد هذا.. فإما تأتون بما طلبناه من أموال دي فيجا وإلا فبلادكم لنا.

قال هذا الضابط البرتغالي وخرج عائداً إلى أسطوله الراسي على أطراف الميناء .

نظر الأمير مطران في ذهول إلى الرِّجال السَّبعة قائلاً:

ـ ما هذا؟.. ماذا ترون؟

فأجابوه بصوت واحد:

ـ هذه المعركة قادمة ولا وقت لدينا إلا الاستعداد والتجهز لها، فليدعو الأمير قادة الجند وأعيان الشحر ومقادمة الحارات ونقباء الجاليات بالمدينة لنجتمع بهم ونقرر ونضع ما نعمل.

وفي ظرف ساعة اكتظت القاعة برجال الشحر من الأعيان ومقادمة الحارات ومقادمة القبائل ونقباء الجاليات المقيمة بالمدينة، وقام الأمير مطران فيهم خطيباً مبسملاً وحامدا لله ومصليا على رسوله، ثم تلى آيات من الذكر الحكيم وقال:

ـ دعوناكم اليوم لدفع الخطر القادم على بلادنا الشحر من قبل البرتغاليين فقد بعثوا رسولهم يطالبنا بدفع أربعة أطنان من الذهب وثلاثة من الفضة، إذا لم ندفعها لهم سوف يغزوننا ويقتلون الرجال والنساء ويحرقون الشحر ومن فيها، فهل لكم من نخوة في ردعهم وصدهم عن هذا؟

صاح الجمع بحمية: لا والله لن ندعهم يغزون بلادنا سنقاتلهم ونفنيهم عن بكرة أبيهم..

قال الأمير مطران: هذا ماكنت أود أن أسمعه منكم فأنتم رجالها والقادرون على حمايتها، ولابد لنا من وضع خطة للدفاع عن بلادنا ونحمي نساءنا وأولادنا وكرامتنا وشرفنا، وقد أعددتُ خطة للدفاع وتحصين المدينة، وقبل هذا أطمئنكم بأن لدينا من العتاد والمؤن ما يمكننا من المقاومة إن أراد البردجيز غزونا، وإني أرسلت رسولي بالأمس إلى شيخ الحدادين (عمر باحويرث) للتفرغ في عمل وصناعة السيوف والأقواس والسهام والرماح والتروس، أما الأسلحة التي في مستودعاتنا والتي سنوزعها على الأهالي للاستعداد هي: ألف سيف هندواني ومائة رمح وخمسمائة ترس وعشرون ألف سهم وألف قوس، سوف نوزعها على كلِّ الحارات، أما الغذاءات فيتكفل بها تجار المدينة وسيرتب ذلك شيخ التجار (الشيخ أحمد رضوان بافضل)، وسنعتمد على التمر وعلى لبن النوق فلدينا في المحط أكثر من ألف ناقة للحموم وسيبان وبقية القبائل، ولدينا أربعة وأربعون عربة تجرها الأحصنة لنقل السلاح والعتاد والمؤن، ولدينا من القاذفات اثنتان سننصب إحداها على تلة المجرف والأخرى على كودة الرملة، أما توزيع المقاتلين فسوف يكون على النحو التالي:

١) خط الدفاع الأول سيكون على شاطئ الميناء من طرف حارة الرملة إلى آخر طرف المجرف، تكون فيه الكتيبة البحرية والحامية السلطانية بكتيبتها اليافعيَّة والمملوكيَّة بقيادة الشيخ مبروك حنين ومساعدة قائدي الكتائب النقيب عبد الله السعدي والنقيب نصر النوبي، ومن وراء خط الدفاع الأول الخط الثاني من أهل حارة القرية، يحصن مداخل القرية بقيادة الشيخ يعقوب الحريضي ومساعده المقدم (سعد بحرق) وتساندهم أعداد من قبائل آل كثير وآل تميم، ويعزز الخط الأول والثاني بفرقة الرماية.

٢) في المجرف ينصب القاذف الأول ويباشر مهامه إثر نزول جنود البردجيز، ويكون أهل المجرف مستعدين لأي تسلل للعدو عبر حارتهم، يوجههم في ذلك المقدم (سعيد بن دحمان).

٣) في الرملة ينصب القاذف الثاني، ويتمركز على رمال الشاطئ الرماة ويكون من خلفهم أهل الرملة محاذاة للقلعة الشبامية، يرتب لهم ذلك المقدم (عوض باحباره).

٤) في السوق يكون الأمير محمد بن مطران يقود المقاتلين من آل كثير وآل تميم يساندهم الشيخ سالم بن صالح باعوين

وأهل المهرة والجالية الهندية بقيادة المقدم (نور الدين غلام) ويتولى ترتيبهم.

٥) الجانب الشرقي من ناحية الرباط والمحط يتولى المقدم (سعد العلي) والحموم حمايته وصد أي تسلل.

٦) وسط المدينة يتولى الشيخ أحمد بلحاج بافضل قيادة جموع حارة المحضار وحضارم الداخل وتساندهم الجالية الصومالية يرتب لهم المقدم (محمود جامع).

٧) حارة الحور والخور يكونون قوة دفاع واحدة بقيادة الشيخ فضل بن رضوان بافضل ومساعدة المقادمة (سالم باوزير) والمقدم (عمر مرعي).

استرسل الأمير مطران في سرد خطته ثم أخذ يستطلع آراءهم فوافقوه جميعاً على خطة توزيع قوة الدفاع، وعقب الشيخ مبروك حنين قائلا:

ـ سنقاتل جميعاً كتلة واحدة، وسننال بإذن الله من العدو، ونحن نحتاج أيضاً لفرق إسعاف وموقعاً محصناً للجرحى ومعالجتهم فيه، وقد أبدت بعض النسوة القيام بمهمة التطبيب ومعالجة الجرحى.

وبعد أن تداولوا الأمر والمشورة، فقد عزموا على أن تجلى الأسر من النساء وكبار السن والأطفال إلى القرى المجاورة من ليلتهم

هذه، ولكن استجابة لإلحاح بعض النساء في المشاركة في فرق التطبيب قرر الأمير بأن يكتفي بعدد اثني عشرة امرأة للقيام بمهمة التطبيب، وبأن يكون بيت (آل بامعيبد) مقراً لذلك، وخرج الاجتماع بقرارات منها:

ـ الإسراع بنقل العوائل وممتلكاتهم الثمينة إلى القرى المجاورة من فجر الغد الجمعة.

ـ اعتماد القيادات المعينة من قبل الأمير من العسكريين والأعيان ومقادمة الحارات، وأن يتولى الأمير مطران وأهل الشورى السَّبعة قيادة المعركة، ولهم الكلمة الأولى.

ـ حشد جموع السكان والمقيمين القادرين على القتال وتسليحهم والاستعداد للقتال.

ـ تخصيص فرق إسعاف ومكافحة الحرائق، وتأمين احتياجات المقاتلين.

ـ إرسال رسالة مستعجلة إلى السلطان بدر أبي طويرق واطلاعه على الأمور وتعجيل قدومه.

ـ إرسال رسالة نجدة إلى أمير المشقاص عطيف بن علي بن دحدح لتعزيز المقاومة الشعبية بالمقاتلين.

ـ إطالة التفاوض مع قائد الأسطول البرتغالي إن أمكن.

ـ أن تدق طبول الإنذار في جميع الحارات للاستعداد والتسلح والتجهز لملاقاة العدو.

ـ أي أمر طارئ يرفع للأمير والقادة السَّبعة للبت فيه والتوجيه.

تعاهد الحاضرون جميعاً وأقسموا على التضحية في سبيل الله والوطن والدفاع عن البلاد والعباد، ثم انطلقوا جميعهم لترتيب أمورهم وإبلاغ عامة الناس للحشد والاستعداد للمعركة المنتظرة.

يوم العاشر من ربيع الثاني

باتت المدينة في حركة قلقة جهز خلالها الأهالي أسرهم للنزوح إلى القرى المجاورة لتجنيبهم أي مكروه قد يأتي به الأعداء، فاستعدوا بالمؤنة وحاجاتهم الضرورية، وتم تعبئتها وتغليفها قبل النوم حتى يكونوا صبيحة فجر الجمعة جاهزين للانطلاق والمغادرة، في حين بات الأمير مطران ليلته في وتيرة عالية من القلق وتوعد البرتغاليين والخوف من مباغتتهم، وكان على هذا الحال إلى أن صدح المؤذن بأذان الفجر، فانتفض طارداً مخاوفه وتوجسه، وهب إلى بيت الطهارة وأسبغ الوضوء وصلى ركعات أطال فيها الدعاء إلى وقت صلاة الفجر فصلى وأمر حراسته بإحضار فرسه فأحضر وامتطاه وتبعه حرسه وذهب راكضاً إلى معسكر البحرية، ليكون على مقربة وفي خط المواجهة مع العدو.

أما البرتغاليون فقد بيتوا النية لغزو المدينة بعد أن لعبوا لعبتهم بادعائهم موت التاجر الفنسو دي فيجا والمطالبة بأمواله التعجيزية، وأرسلوا رسولهم لمطالبة أمير الشحر بدفع هذه الأموال،

وكان هدفهم الأول من هذا هو استطلاع حال المدينة من الداخل وتفقد قوة السلطنة، وقد رأوا في المدينة وداعتها ومهادنة سكانها وقلة جنودها وتأكد لهم بعدم وجود سلطانها وجيشه فيها، فأراد القائد البرتغالي لويزدي منزيس استغلال هذه الفرصة والإسراع في غزو المدينة واحتلالها قبل وصول السلطان بدر وجيشه إليها، واختار يوم الجمعة لاستغلال عطلة الأسبوع ومكوث الأهالي في بيوتهم للراحة، فما إن بان ضوء الفجر أمر جنوده بإنزال قواربهم من سفنهم فبدأ إنزال القوارب وبدأت حركة الجنود في نقل العتاد والأسلحة إلى القوارب وشحن الجنود عليها.

وقد أمر الفرقة الأولى غزاة بأن يتجهوا نحو الميناء لمواجهة حامية الميناء وقتلهم والاستيلاء على معسكر البحرية ومبنى الجمارك والميناء، وتأمين الطريق للفرقة الرابعة غزاة التي ستكون مهمتها التسلل إلى قلب المدينة والاستيلاء على القصر السلطاني وأسر من فيه أو قتلهم، أما الفرقة الثانية غزاة فسوف يتجهون شرقاً وهدفهم الأول الاستيلاء على القلعة القديمة والحواري المجاورة لها، وأما الفرقة الثالثة تتجه غرباً وهدفها الاستيلاء على القلعة الشبامية وإخضاع حارة الرملة والحور، وأعطى أوامره بالتحرك ومهاجمة المدينة.

كان الأمير مطران والشيخ مبروك وقادة الكتائب يشاهدون تحرك البرتغاليين فأيقنوا بأن ساعة الصفر قد حانت، فتدارس الأمير مطران ومن معه خطة صد الغزو وأمر بأن يخلى الميناء من الجند وقال:

ـ يبقى عشرة حراس اذا اقترب منهم البرتغاليون بقواربهم أروهم بأنكم تفرون من أمامهم فإذا اتجهوا إلينا سنكون نحن كامنين خلف جدران البيوت، أما فرقة الرماة فليعتلوا أماكنهم المحددة وينتظروا مني أمر الرماية حتى إذا نلنا منهم خرجنا لهم من بين البيوت فننقض عليهم، وسوف أعطي الأمر لقارع الطبل في بداية هجومنا عليهم ليوقظ الأهالي ويتسلحوا أسلحتهم، وأرسلوا حالاً من يخبر حراس القلعة القديمة ويخبر الشيخ باعوين ومقادمة المجرف والقرية، ومن يخبر حراس القلعة الشبامية والشيوخ أحمد وفضل بافضل ومقادمة حارة الرملة والحور، وأرسلوا من يخبر بقية السَّبعة قادة المقاومة الأهلية في نزول البرتغاليين.

وحينما اقتربت قوارب البرتغاليين إلى الميناء انسحب الأمير مطران ومن معه إلى موقع الكمين الذي اختاروه وأعدوه، ونفذ جنود الميناء مهمتهم في التظاهر بالهروب، فرآهم قائد الفرقة فأمر بإطلاق النار عليهم فقتل منهم اثنان ونجا البقية، ووصلت قوارب الفرقة الأولى إلى ساحل الميناء فوجدته فارغاً من الحراس ولا توجد

سوى جثتي القتيلين اللذين أطلقوا عليهما النيران، وحينما اكتمل نزولهم استولوا على مبنى الجمارك ومبنى البحرية، وتحركت على إثرهم الفرقة الرابعة لاقتحام المدينة والوصول إلى القصر السلطاني، ونزلوا الميناء وبدأ توغلهم إلى المدينة، والأمير مطران يترقب وصولهم إلى موقع الكمين الذي أعد لهم فوصلوه بعد حين من الزمن، فأمر الرماة بأن يباشروهم برمي السهام فباغتوهم من على أسطح المنازل وأرشقوهم بالسهام حتى تضعضعوا، فوجهوا بنادقهم للرماة وأصابوا منهم عدداً بنيرانهم، فأمر الأمير مطران بالهجوم فالتحم المقاتلون مع الغزاة وثارت معركة كبيرة انهزمت فيها الفرقة الرابعة غزاة فانسحبوا إلى الميناء، فعززتهم الفرقة الأولى غزاة فصوبوا بنادقهم إلى المقاتلين فتراجعوا وتحصنوا بالبيوت وكمن لهم رماة السهام، وأظهر أمير بحر الشحر الشيخ مبروك شجاعة نادرة في المعركة، وكان الدينامو المحرك للمقاتلين في ميدان القتال.

حينما قرعت الطبول تبادر أهل الشحر إلى أسلحتهم واصطفوا خلف قادتهم منتظرين لأمر القيادة، فكان أهل المجرف منتظرين تقدم الغزاة المتجهين إليهم وإلى القلعة، فحينما قربوا من الشاطئ وبدأوا بالخروج باشروهم بإطلاق القاذف باتجاه القوارب فمزق عدداً من قواربهم، وأصاب وقتل منهم، ثم التحمت الفرقة

الثانية غزاة معهم واحتد القتل وأطلق البرتغاليون بنادقهم وقتلوا وأصابوا عدداً من المقاتلين، والتحمت الفرقة الثالثة بأهل الرملة واحتدم القتال بجوار القلعة، وقتل من كلا الطرفين عدد كبير وجرح آخرون، واستمرت المعركة في اشتدادها واستبسل فيها أهل الشحر والمقيمون فيها غاية الاستبسال، وأبدوا شجاعة وقوة كبيرة، وبقت المعركة إلى قرب أذان العصر، فأمر القائد البرتغالي لويز جنوده بالانسحاب والعودة إلى سفنهم، فحملوا قتلاهم وجرحاهم وقفلوا راجعين.

وأمام هذا الانسحاب المخزي للعدو، تنفس الأهالي الصعداء وأخذوا جرحاهم إلى دار التطبيب، ثم أخذوا الشهداء إلى جامع الشحر وهناك غسلوهم وكفنوهم وأقيمت الصلاة عليهم وحملوا إلى مقبرة عمرو ودفنوا جماعات وفرادى، واجتمع الأمير مطران مع القادة السَّبعة وبقية النقباء والمقادمة ليراجعوا خطة الدفاع عن المدينة وسبل الوقاية والتعامل مع السلاح الناري للعدو الذي كاد أن يتفوق عليهم بسببه، فاقترح الشيخ مبروك حنين بعمل سواتر ترابية تتخلل الساحات العامة والمكشوفة حتى يستطيع المقاتلون التمترس خلفها ومناورة العدو، واقترح الأمير خطة الحلق المقفلة حيث يحيط المقاتلون بالعدو في دائرة محكمة ويتناوشونهم بالسهام والرماح والسيوف، اتفق القادة على هذه الخطط وباشرت فرق

خاصة بتنفيذ ما اتفقوا عليه من عمل الستائر وإعداد المواقع التي يستدرجون العدو إليها.

أما البرتغاليون فقد هالهم ما نالهم في مواجهتهم مع أهل الشحر ومقاومتهم لهم، فربطوا قتلاهم وأقاموا القداس عليهم ثم رموهم إلى قاع البحر، وتوعد القائد البرتغالي لويز أهل الشحر بالانتقام الشديد والقتل والتنكيل، فجمع قادة جيشه وعقد اجتماعه بهم وتدارس سير المعركة وأعد لهم خطته لمعركة الغد فقال لهم:

ـ نريدُ غداً أن نلقن أهل الشحر درساً لن ينسوه أبداً، وأن نكسر شوكة العرب من خلالهم فلم يقاومنا في العرب إلا هم ولم يقاتلنا إلا هم، والشحر هذه أهم البلدان على بحر العرب ولابد من إخضاعها واحتلالها، وغداً سوف نبطش بطشتنا الكبرى فلن نرحم منهم أحدا، أنتم رأيتم جمال المدينة ورونقها وضخامة تجارتها، كل هذا سنحوله إلى ركام ورماد، هجومنا غدا هو قتل كل آدمي نراه أمامنا وحرق كل مبنى ومستودع وحانوت، وخطتنا في الهجوم هي: الفرقة الأولى سوف تشن الهجوم أولاً على الميناء وما فيه، وأن تباشر بحرق كل سفينة وكل قارب ومبنى الجمارك ومصانع السفن والقوارب ومستودعات الأخشاب والبضائع وكل ما تصل إليه أيدينا، نريد بهذا إرعابهم بحريق كبير وإشغالهم حيث يكون تركيزهم على

هجوم الفرقة الأولى، الفرقة الثانية بعد أن تشتعل الحرائق تتجه إلى حي المجرف وتباشر الهجوم بالحريق والقتل والتوغل من جهة المدينة الشرقي إلى قلب سوق المدينة وحرق حوانيتها ومتاجرها، الفرقة الثالثة والرابعة معاً هجومهما على حي الحور ففي هذا الحي بيوت كبار تجار البلد فانهبوا ما فيها من ذهب ومجوهرات ومال وأحرقوها بمن فيها، وتتوغل الفرقتان إلى قلب المدينة فالفرقة الثالثة تتجه صوب القصر السلطاني وتستولي عليه، والفرقة الرابعة تلتف على حي القرية من جهة الشمال وتحاصر المقاتلين العرب من الخلف حتى نتمكن من القضاء عليهم وسحقهم، هذه الخطة غداً ننفذها بحذافيرها ولن أتسامح مع أي تهاون أو خلل يأتي من أي جهة.

هكذا رسم القائد البرتغالي خطة هجومه القاتلة على مدينة الشحر لتدميرها وذلك رداً على مقاومتهم الشديدة لجيشه الغازي، وحينما أبدى ضباطه تفهماً واستعداداً لتنفيذ خطته أمرهم بالانصراف للراحة والنوم لحين حلول ساعة الصفر.

يوم الحادي عشر من ربيع الثاني

ما إن أنقضت ليلة الحادي عشر من ربيع ثاني وتسللت أشعت الشمس إلى البحر واليابسة حتى أخذ الجنود البرتغاليون في النزول إلى قواربهم التي حُملت بالنفط وبراميل البارود، تتقدمهم الفرقة الأولى بقيادة الضابط البرتغالي (تي بارا) الذي خبر مسالك الميناء واستطلع طرقه في مهمته السابقة، وشقت قوارب الفرقة الأولى صفحة البحر مبحرة في هجومها الباكر على الميناء، وكانت المراقبة الشحريَّة ترى تحركاتهم وتطلع الأمير مطران عليها، فأمر قادة المقاتلين بعمل قوس دفاعي على الميناء وأن تكمن لهم فرقة الرماية لمباغتتهم حين تقدمهم إلى المدينة، وتقدمت الفرقة البرتغالية الأولى غزاة إلى الميناء، ودخلت الميناء دون أن يواجهها أحد فقامت بإحراق بعض السفن الراسية على الميناء وقوارب الصيادين الطارحة على الشط.

ثم أحرقت مبنى الجمارك وما تبقى فيه من بضائع وأكثرها أخشاب مستوردة وأقمشة لم يتمكن أصحابها من أخذها، فالتهمت

النيران كل ذلك وتصاعدت ألسنة اللهب والدخان عالية في سماء الميناء، ثم تحركت إلى أطراف مدخل حارة القرية وأطلقت مقذوفاتها النارية المحملة بالنفط والبارود على المستودعات القريبة وعلى البيوت فاشتعلت النيران فيها محدثة خسائر كبيرة وألماً ووجعاً في نفوس المقاتلين الأهالي المدافعين عن مدينتهم، كان قائد المدافعين أمير بحر الشحر الشيخ مبروك يرى كل ذلك وهو على خط المواجهة يعجزه تملك عدوه لسلاح ناري جديد لا يملك هو ومقاتلوه مثله، ماذا عساه أن يعمل حيال هذا، وليس لديه إلا فرقة الرماية التي باشرت معركتها برمي الجنود البرتغاليين بالسهام ويرد البرتغاليون عليهم بطلقات الرصاص من بنادقهم، فتقهقر خط الدفاع إلى داخل حي القرية فاتبعهم البرتغاليون يتعقبونهم وهم يشعلون النار في البيوت والحوانيت التي في طريقهم.

وحين توغل البرتغاليون في وسط القرية أمر القائد مبروك بالإطباق على العدو ومهاجمته، فانطلقوا في مواجهة العدو وهم يتلقون الرصاص منه بصدورهم العارية والتحموا معه بأشد ضراوة وشراسة، وقتلوا منهم عدداً كبيراً، وفي هذا الدفاع المستميت استشهد الشيخ يعقوب الحريضي أحد أهل الشورى السَّبعة، وفي أثناء ذلك القتال الرهيب، هاجمت الفرقة البرتغالية الثانية حارة المجرف فوجدت قلة من المدافعين عنها فأحرقت ما في طريقها وقتل

عدد من أهاليها، كما استبسل المدافعون عنها وقتلوا عدداً من البرتغاليين، إلا أن البرتغاليين استطاعوا التسلل إلى سوق المدينة والتحموا مع من فيها من المقاتلين وبدأوا في حرق الحوانيت والبيوت وإطلاق النار، وصمد لهم الأهالي في معركة ضارية استشهد منها الكثير من الأهالي والمقيمن فيها وعلى رأس الشهداء ثلاثة من السَّبعة أهل الشورى منهم الشيخ حسين العيدروس والشيخ فضل بن رضوان والشيخ أحمد بلحاج بافضل، ودفع البرتغاليون بقوتهم في هجوم فرقتهم الثالثة والرابعة على حارة الحور فبدأوا بإشعال الحرائق في كل ما يواجهونه، فتصدى لهم الشيخ أحمد بن رضوان في جماعة من أهل الحور والخور ودارت معركة شديدة قتل فيها عدد من البرتغاليين.

واستشهد الشيخ أحمد بن رضوان مع عدد كبير من الأهالي المقاومين، واستطاع البرتغاليون التسلل إلى سوق المدينة لعمل كماشة على القوة الدفاعية الكبرى لأهل المدينة والقضاء عليها والاستيلاء على القصر السلطاني، إلا أن الأمير مطران أدرك خطتهم فترك لهم طريقاً إلى ساحة السوق، في حين جهز مقاتلين من قبائل الحموم وسيبان وأفراد من قبائل شتى من سكان حي المحط والرباط للأطباق على العدو من خلفه، فكان لهم ما أرادوا، ودارت رحى معركة قتل فيها الكثير من البرتغاليين ومن أهالي الشحر، وشعر

القائد البرتغالي ببوادر الهزيمة لجيشه فأمر جيشه بالانسحاب فانسحبوا يجرون ذيول الخيبة والهزيمة، عاد البرتغاليون إلى سفنهم يحملون قتلاهم وجرحاهم، وأدرك قادة الفرق البرتغالية عجزهم عن إخضاع هذه المدينة العصية، فلدى أهلها شجاعة نادرة وإقدام على الحرب والموت، فأسروا بذلك إلى قائدهم (لويز) فثار غضبه وصاح فيهم:

ـ انهزامنا هو انهزام للمملكة البرتغالية انهزام لهيبة البرتغال وقوتها، ولن أسمح أنا بذلك، سوف نقاتلهم وندمرهم لابد من إخضاعهم ولم يبق معنا في الوصول إلى ذلك إلا القليل فكونوا غداً على استعداد تام، غدا سوف يتجه كل الجيش إلى ساحل الميناء ونشكله في ثلاث فرق، الفرقة الأولى تهاجم من حارة القرية والفرقة الثانية تهاجم من حارة المجرف والفرقة الثالثة تهاجم من حارة الرملة، ثم نتجه صوب القصر السلطاني ونستولي عليه ونقتل من فيه، بهذا سوف نحكم قبضتنا على المدينة قبل وصول السلطان إليها بجيشه ليرفدهم.

قال هذا القائد لويز ثم رفع إليه كشوفات القتلى والجرحى من جنوده فهاله العدد الكبير من القتلى والجرحى، ولكنه بيت النية للانتقام لكل هؤلاء من أهل الشحر صبيحة اليوم الثالث.

أما أهالي الشحر فقد خاضوا يوماً عسيراً، أبلوا فيه بلاءً حسناً واستماتوا في الدفاع عن دينهم وأرضهم وعرضهم، وضحوا بمئات الشهداء في سبيل ذلك، وكثر في ذلك اليوم الجرحى فلم تسعهم دار بامعيبد للتطبيب، ففتحوا في كل حي بيتاً يتلقون فيه الجرحى ويقومون بإسعافهم ومداواتهم، وظلوا في تضميد جراح الجرحى ونقل الأموات إلى المغاسل إلى ساعات متأخرة من الليل، ومضى الليل ثقيلاً على ذلك المنوال، أما الأمير مطران وقادة المقاتلين فلم يكفوا عن الحركة، فباتوا في اجتماعات متصلة وتفقد مستمر لكل العمل الجاري بالمدينة، وكان ليلتها الحزن مخيماً على المدينة، والأهالي في صبر جميل، واحتساب لله تعالى وتسليم كامل لمشيئته، ومما زاد الحزن فيهم هو خسارة فقد القادة الخمسة الكبار من أهل الشورى، هؤلاء الذين كانوا يمنحون المقاتلين القوة ومتانة الصمود، فخاف الأمير مطران أن يتضعضع الناس في القتال، ففاتح بذلك أمير بحر الشحر الشيخ مبروك، فقال الشيخ مبروك:

ـ وفي نفسي ما في نفسك يا أمير مطران، ولكن لن نمكن البردجيز من رقابنا، ولابد من شحذ همم الناس وبث روح القتال فيهم والانتقام للشهداء والثأر للقادة أهل الشورى، وعلينا أن ننطلق مع مشايخ العلم إلى حارات الشحر نواسيهم ونحرضهم على القتال ونحثهم على الجهاد ومجابهة العدو وأخذ الثأر منه.

استحسن الأمير مطران الرأي وأمرهم بالتحرك سريعاً لإنجاز هذه المهمة، كما وضع مع بقية القادة خطط الدفاع استعداداً لهجوم الغد المرتقب.

يوم الثاني عشر من ربيع الثاني

لم ينم في ليلهِ الأميرُ مطران وظل على حالهِ مستيقظاً من إشراق شمس يوم السبت إلى إشراق شمس يوم الأحد، وقد نال منه الجهد الكثير ولكنه مازال متيقظاً فطنا، فبعد انقضاء صلاة الفجر مباشرة خرج وخرجت الجموع المقاتلة خلفه، وكذلك في كل حارة فعلوا ما فعله، فأخذوا فطورهم قبضة من التمر المنزوع النوى والمعجون بزيت السمسم فأكلوه وأتبعوهُ بشرب الماء، وتهيأت فرق القتال والدفاع عن المدينة في كامل استعدادها لملاقاة العدو والنيل منه، وكان أمير البحر الشيخ مبروك على شاطئ الميناء يراقب تحركات العدو ويرتب وضع المقاتلين، ومن خططه أن جهز قاربين وفي كل قارب اثنان من فدائيي الشحر الأشاوس، وأمرهم أن يترقبوا إلى ما بعد احتدام المعركة، حينها يبحر الزورقان وقد زودهما بالكرات القطنية المبللة بالزيت والأسهم التي تحمل تلك الكرات إلى حيث ترمى، إلى سفن العدو الراسية لحرق ما يمكن إحراقه منها.

لم يتباطأ البرتغاليون، فأنزلوا قواربهم واتجهوا إلى الميناء كتلة واحدة واندفعوا إلى حارة القرية في هيجان كبير يحرقون كل ما يواجههم في طريقهم، ويطلقون النار عشوائياً لينالوا من المقاتلين والبيوت، وتصدى لهم الأهالي في مراوغة حربية بين كر وفر وغارات على مجاميع البرتغاليين المتفرقين في حواري الشحر، واستطاعت فرقة من البرتغاليين محاصرة الديوان الأميري حيث يقيم الأمير مطران في إدارة غرفة عمليات الحرب، ولكن مجموعة من المقاتلين الشحريين بقيادة الشيخ سالم باعوين استطاعت فك هذا الحصار، وانسحب من الديوان الأمير مطران والشيخ أحمد بن دحران سابع أهل الشورى فاتجهوا غرباً إلا أن قناصاً برتغالياً أطلق عليهما النار فأصابهما في مقتل واستشهدا سويا، واستبسل الشيخ سالم باعوين ومن معه في قتال تلك الفرق البرتغالية المنتشرة في شوارع الشحر فقتلوا منهم الكثير، واستشهد فيها الشيخ سالم وثلة من المقاتلين معه.

في هذه الأثناء تحرك الزورقان لينفذا خطتهما وأمر أمير البحر فأبحرا نحو السفن وهما رافعان علم البرتغال على مقدمة زورقيهما وعليهم لباسهم وذلك لإيهام من في السفن بأن القادم إليهم هما زورقان برتغاليان يحملان الجرحى، فحين وصلا إلى ملاصقة السفن باشرا بإطلاق سهامهم المشتعلة إلى داخل السفن لتحدث

حريقاً مروعاً ارتفعت ألسنة لهبها إلى سماء البحر، فارتاعت حراسة السفن والعاملون فيها، فهبوا في الإطفاء وإخماد الحريق، ثم انتبهوا إلى من هاجموهم بالقوارب، فأطلقوا عليهم النار وقتلوا أحدهم، أما الثلاثة الآخرين فغطسوا في البحر وعادوا إلى الشاطئ سباحة تحت الماء.

وكان الشيخ مبروك يترقب نجاح مهمة الزورقين، فحين شاهد النيران تتصاعد أرسل الهندي (سليم مرزا) وكان مقيما بالشحر وقد ألبسه لباس الجنود البرتغاليين، ليشيع الرعب بينهم وإعلام قياداتهم بحريق سفنهم والهجوم عليها، فانطلق سليم مرزا بين صفوف المقاتلين ينفذ خطة أمير البحر وأخبر القائد لويز، فارتعب وأمر جيشه بالانسحاب والعودة إلى السفن، وكان الشيخ مبروك كامناً لهم على مخرج حارة القرية فرأى انسحابهم فانهال عليهم بالسهام والرماح وقتل منهم قرابة ثلاثين جندياً في حالة انسحابهم وكان من بين القتلى الضابط الكبير (تي بارا)، واستمر الجيش البرتغالي في الانسحاب والتراجع في ظل حصار خانق من قبل أهالي الشحر والمقاتلين فيها إلى أن اكتمل انسحابهم، فاشتركوا في إخماد بعض النيران التي تضاءلت حالتها فأطفأوا ما فيها، ولم تكن يومها خسارتهم من الحريق سوى سفينة واحدة وهي التي التهمتها النيران كاملة بسبب وجود النفط فيها والبارود الذي سمعت صدى

انفجاراته إلى داخل الشحر، حينها أدرك قائد الأسطول البرتغالي (لويز) عجز جيشه وخسارته الكبيرة فاستسلم للهزيمة وأصدر أمره للسفينة بالإقلاع والإبحار من قبالة الشحر ومغادرتها، وفي طريقه أدرك سلامة انسحابه حين رأى في الطريق الساحلية الشرقية جيشاً جرارا قادماً إلى الشحر.

رأى أهالي الشحر وفي مقدمتهم أمير البحر الشيخ مبروك مغادرة سفن العدو البرتغالي ميناء الشحر راجعة منسحبة مهزومة، فاستبشروا بالنصر وعمت الفرحة بينهم، وارتفعت أصوات المقاتلين بالتكبير إلى عنان السماء وتنفس الناس الصعداء، فثلاثة أيام من القتال كلفتهم الكثير من التضحية وبذل الغالي والنفيس، وعلى رمال شاطئ البحر خر الشيخ مبروك ومن معه سجداً لله سجود شكر وحمد، وابتهلوا بالدعاء والتضرع لله تعالى.

كان الشيخ مبروك في عمل دؤوب بعد صد الغزاة ودحرهم، فأمن حراسة الميناء، وهيأ فرق الإطفاء وزودهم بالرجال، فهي أول الأمور التي ينبغي معالجتها، وفي هذه الأثناء وصله نبأ استشهاد الأمير مطران والشيخ سالم باعوين والشيخ أحمد بن دحران، فتوجه إلى حيث هم فوجد أناساً كثر متجمهرين حولهم، فشكل من حينها فرقاً للعمل منهم فرقة تغسيل الموتى وفرقة حفر القبور، وأمر بحفر قبر واسع حيث استشهد الأمير مطران ليضم فيه الأمير مطران وأهل

الشورى السَّبعة، إلا أن أهل تريم القاطنين بالشحر وفيهم طلبة العلم قد نفذوا وصية الشيخ الشهيد أحمد بلحاج بافضل ليدفن في قُبَّة والده فدفن فيها، وضم الضريح بقية الشهداء السَّبعة.

وقبل غروب شمس ذلك اليوم الأحد الثاني عشر من ربيع الثاني، دخل مدينة الشحر الجيش القادم من المشقاص بقيادة الأمير عطيف بن دحدح، فوجد أن العدو الغازي قد فر هارباً وترك خلفه دماراً هائلاً، فانضم الأمير عطيف إلى الديوان وشكلا مع الشيخ مبروك والأمير محمد بن مطران قيادة لإدارة شئون المدينة، وأمر الأمير عطيف جيشه في مساعدة الأهالي في إخماد النيران ودفن الشهداء ومعالجة الجرحى وحرق جثث البرتغاليين، وكان ذلك العمل إلى منتصف الليل، وحين رأى الأمير عطيف إجهاد الأهالي وقياداتهم، أمرهم بالهجوع والراحة وتولى هو وجيشه حراسة المدينة، فحمد له الأهالي صنيعه، وسكنت المدينة في بقية ليلتها إلى طلوع الفجر.

يوم الثالث عشر من ربيع الثاني

لم يغادر الشيخ مبروك ديوان الإمارة فأغمض فيه عينيه، فلم يكن هناك متسع من ساعات الليل الأخيرة للذهاب إلى بيته وتفقده، فاحتسب ذلك لتحمل مسئولياته والتزم الديوان وبات فيه إلى وقت السحر فنهض وتوضأ وصلى ركعات قبل الفجر، ثم التحق مع الأمير عطيف بالجماعة في المسجد فصلوا فيه صلاة الفجر سوياً، واستأذن الشيخ مبروك الأمير عطيف في مباشرة عمله فأذن له بعدما شرح له تحركاته.

فانطلق الشيخ مبروك على فرسه إلى ميناء الشحر يتفقد الحراسة ويستعلمهم عن أي حدث، فأخبروه بأن الوضع ساكن ولا توجد هناك أي حركة أو شبهة، فأمر الشيخ مبروك أحد زوارق البحرية في الصعود إلى عالي البحر لتعقب الأسطول البرتغالي والتأكد بأنهم غادروا المياه الإقليمية للسلطنة، فتوجه ذلك الزورق في خط طولي مائل إلى الشرق موغل في عمق البحر فلم يرى للأسطول البرتغالي أثراً، فعادوا بالبشارة إلى الشيخ مبروك واطمأن لهروب

البرتغاليين، وأخبر الأمير عطيف بذلك فأمره بترتيب وضع الأهالي وصرف الجنود حامية ومماليك للراحة وتفقد أهاليهم وسيتولى جيشه حفظ الأمن والحراسة إلى عودة السلطان بدر، فشكر الشيخ مبروك للأمير عطيف شهامته ونجدته ووقوفه هذه المواقف المشرفة.

توجه الشيخ مبروك إلى مقادمة الحارات وأعيانها وأوصاهم بإعادة الأسر النازحة من القرى إلى المدينة للعناية بجرحاهم وإعادة الحياة للمدينة وطمأنة أهلها بزوال الخطر ونصر الله لأهل الشحر ومن فيها بالنصر المبين، ثم توجه إلى دار بامعيبد حيث يقبع الجرحى ويتم فيها معالجتهم وتطبيبهم، فوجد الدار مليئة بالجرحى، ووجد المسعفين والممرضين كخلية النحل لا تكاد تستكين، فتفقد من يرقد بالغرفة الأولية في مدخل البيت وواساهم ونقل لهم بشارة النصر وهروب العدو بعد ما أشبعوه قتلاً، وكان من بين الجرحى الكثير من طلبة العلم وشيوخ المدينة والمقيمين فيها من حضارم الداخل والجاليات الهنديَّة والصوماليَّة.

وحين توغَّل رأى (سلمى) مع بقيَّة المسعفات وقد أنهكهن التعب والأرق فيمشين يتهادين بين المرضى يضمدن جراح هذا ويستبدلن لفافة جرح ذاك ويحضرن الدواء ويمددن المعالجين بما يحتاجونه من خدمة للجرحى، وحين رأته سلمى ماثلاً أمام ناظريها

كادت تطير من الفرح لسلامة زوجها فهرعت إليه متجاوزة المرضى وأرادت احتضانه ففطن للموقف فأمسك يديها وهي تردد: حمداً لله على سلامتك ..حمداً لله على سلامتك.

قال لها: الحمد لله الذي نصرنا على عدونا ووقانا شرَّه.. ثم نظر إليها مواسياً ومشجعاً:

ـ أرهقتم وتعبتم كثيراً ولكن احتسبوا الأجر الكبير عند الله.

ـ تعبنا يزول بسلامتكم وبنصر الله، وما قمنا به لا يساوي معشار ما قدمتموه أنتم في ميادين القتال.

ـ بل كلنا في جهاد في سبيل الله، ونسأل الله أن يتقبل الشهداء ويعافي الجرحى برحمته وفضله.

قالت سلمى وقد رفعت كفيها متضرعة: آمين ..آمين .. آمين.

قال لها الشيخ مبروك: زال الخطر وأمرنا مقادمة الحارات بإعادة الأسر إلى بيوتهم، وقد تحركوا بعض الرجال بالجمال والحمير والخيول لجلب العوائل، وإن شاء الله ظهر اليوم سيكونون هنا لأخذ جرحاهم إلى بيوتهم لتطبيبهم فيها والعناية بهم وسيطوف المعالجون على أصحاب الجروح البليغة لتعهدها ومتابعة حالتها.

ـ جزاكم الله خيراً، فقد أرهقن الممرضات وهن يخالطن الليل بالنهار لحال هذه الساعة، وهل تفقدت بيتنا يا مبروك؟

ـ لا والله لم أتفقده ولم أره فرباطي في ميادين القتال وتحمل مسئولياتي لم يتيحا لي ذلك، والآن بعد أن اطمأننت عليك وعلى الجرحى سأذهب إليه لأراه، قبل أن تعود الأسرة من قرية (تبالة) وفيها ابننا أحمد ألم تشتاقي إليه؟

ـ إي والله اشتقت لصغيري وإن انشغلت عنه، فاذهب وتفقد بيتنا أعانك الله..

خرج الشيخ مبروك من (دار بامعيبد) ممتطياً فرسه، وفي طريقه هاله كبر الحريق الذي لحق بالحوانيت وبعض المنازل وقد تم إطفاؤه فتفحمت الأخشاب واسودَّت الجدران، وارتسمت معالم الكآبة على السوق ومداخلها، وكاد الحزن يشق كبد الشيخ مبروك لولا ترجيعه وحوقلته وامتثاله لقضاء الله وقدره، وحين أقبل على داره وجد باب الدار مخلوعاً وآثار الحريق على بعض الجدران، فاستعاذ بالله وترجل ودخل بيته ليرى بيته تعرض للنهب والسرقة والعبث بمحتوياته وحرق بعض أثاثه، فلم يدر ماذا يفعل وبمن يستعين فكل أهل الشحر ومن فيها مشغولون بإصلاح بيوت من تعرضت بيوتهم للحريق أو الهدم أو الخراب، فشمر عن ساعديه

وأخذ يعمل ويصلح في بيته ويهيء بعض الغرف لمأوى العائلة ويصلح مرفقاتها، وسد فتح النوافذ التي تعرضت للحرق، وحاول ترميم باب داره وجلب بعض الفرش والأثاث من ديوان الإمارة، فالحارات التي على ساحل البحر هي من تلقت الضربات الأولى من هجمات الغازي المعتدي البرتغالي الآثم، وبيوتها هي المتضررة أكثر، وكذا حوانيت السوق أصابها الكثير من الحريق والضرر.

أنجز الشيخ مبروك إصلاح بيته وتفقد جيرانه وأهل حارته ووجه ببعض المساعدات الطارئة لهم، ثم انطلق يتفقد بقية أحياء الشحر ويلبي ما تيسر من حاجاتهم، واستانفت الفرق التي شكلها في عملها و تقديم المعونات والمساعدات والخدمة للأهالي المتضررين، وتنظيف الطرق من مخلفات الحرب والحرائق حتى أقبلت أفواج العائدين من الأسر النازحة إلى مساكنها وقد ارتابها شيئ من الهلع مما رأت من آثار الحرب، ومازالت الأسر تتوافد إلى المدينة وتدخل بيوتها حتى انقضى وقت الظهر ورفع أذان العصر، حينها ذهب الشيخ مبروك إلى دار آل بامعيبد حيث يعالج الجرحى، واستدعى الفرق المتطوعة من كل الحارات، ووفر لهم العربات التي تجرها الأحصنة، وأخذت الفرق في نقل الجرحى كل إلى بيته حتى أتى على إفراغ المصحة من كل المرضى، وأذن للأطباء والممرضين والممرضات والمسعفين والمسعفات وكل من خدم وعاون في تلك المصحة بعد أن

أثنى على أعمالهم وما قاموا به محتسبين الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى.

أما سلمى فهيأت نفسها وأحزمت أغراضها في ملفة صغيرة ووقفت إلى جانب زوجها أمير بحر الشحر الشيخ مبروك وكانا آخر من غادر دار آل بامعيبد، فأردفها على حصانه ومضى بها إلى بيته، وهي خلفه تقاوم دموعها مما ترى في طريقها من آثار الحرب وهالها كبر الحرائق وانتشارها، ولولا لطف الله لعم الحريق كامل المدينة ولأصبحت فحمة كبرى، وما هي إلا دقائق معدودات حتى وصلا عتبة دارهم وكان على باب الدار ابنهم أحمد ذو الخمس سنوات يترقب وصولهم فهرولوا إليه وانطلق أحمد في حضن أبويه يعانقهما وهما يقبلانه ويحتضنانه، وحمله أبوه وولجا إلى الدار وكانت بقية العائلة في انتظارهم، وعندما سألوه عن بقية رجال العائلة أخبرهم باستشهاد أخيه وصهره في أول أيام المعركة، فناحت النساء واحتسبن لله وظل الأنين في صدورهن طوال الليل، ولم يخلُ بيت في الشحر ليلتها لم تنح نسائه.

عودة السلطان

في صبيحة يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الثاني، دخل الشحر أحد خيالة السلطان بدر أبي طويرق يحمل خبر وصول السلطان بدر وهو على مشارف قرية تبالة، فتلقى الأمير عطيف النبأ بسرور بالغ وأمر جنوده بتجهيز القصر السلطاني وأرسل للشيخ مبروك حنين أمير بحر الشحر والأمير محمد بن مطران يحثهما على الإسراع في لقاء السلطان بدر واستقباله خارج الشحر، فكان لقاء السلطان على محاذاة قرية تبالة على الطريق المعبد للقوافل المتجهة إلى داخل حضرموت، فسارا إلى جانب السلطان وبجوارهما القائد التركي رجب وجنوده حملة البنادق النارية وخلفهما جيش جرار بكامل عدته وقوته، وقد كان السلطان بدر يحث السير في دخول المدينة وحين وصل إلى سورها أمر قيادة الألوية بتوجيه جنودهم إلى معسكراتهم فكانت منها خارج السور ومنها داخل السور وعلى ساحل البحر، وتوجه هو والأمراء والقائد رجب إلى قصر السلطنة وقد أزيلت عنه آثار بعض الحرائق والقذائف النارية، وكان في استقبالهم

سكرتير السلطان بدر المعلم يسلم باصديق، وحين ولج السلطان بدر إلى ديوان السلطنة وجلس مطمئناً سأل الأمير محمد بن مطران :

ـ أين أبوك يا محمد؟

ـ أبي يا سيدي اختاره الله شهيداً إلى جواره.

بهت السلطان بدر مما سمع وتفاجأ فقال محتداً:

ـ أو قد استشهد الأمير مطران.. إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم التفت إلى سكرتيره المعلم يسلم باصديق وقال له:

ـ ادعُ لي أهل الشورى السَّبعة حتى أسمع منهم وأستشيرهم.

صمت برهة المعلم يسلم باصديق فحدقه السلطان بعينين تستطلعان هذا الصمت وعدم سرعة التلبية، فقال السلطان بدر بعتب:

ـ ما بك يا يسلم.. هيا أسرع.

قال المعلم يسلم باصديق: إن أهل الشورى السَّبعة جميعهم استشهدوا يا سيدي.

نهض السلطان واقفاً من ألم الخبر ونهض خلفه كل من في الديوان وقوفاً، وفي نبرة حزينة موجعة قال السلطان بدر:

ـ يا الله ما الذي حل بمدينتي وأهلها، أخبرني يا شيخ مبروك؟ وأحكِ لي بالتفصيل ما قد حدث.

امتثل الشيخ مبروك بين يدي السلطان، وأخبره بسير الأسطول البرتغالي وحرقه للسفن في المشقاص ووصول رسالة الأمير عطيف وتوجه الأسطول إلى الشحر وقد مر بالحامي فأحرق سفن أهلها ومستودعاتها على البحر، ثم وصل إلى الشحر وأرسل قائد الأسطول لويز رسوله إلى الأمير مطران برسالة يقول فيها بأن التاجر البرتغالي الفونسو دي فيجا مات بالشحر وأن السلطان أخذ أمواله وأنهم يريدونها وإذا لم تدفع لهم حالاً فإن الشحر لهم وملكهم فهاجموها فجر يوم الجمعة ويوم السبت ويوم الأحد وفيه فروا هاربين إلى أعالي البحار، وأخذ السلطان يسأل ويستفسر وكان الأمراء يجاوبونه على أسئلته واستفساراته ويشرحون ما غمض عليه، ثم قال السلطان:

ـ هل أحصيتم عدد الشهداء وحصرتم أسماءهم؟

قال السكرتير يسلم وقد أخذ سجلاً بجواره:

ـ نعم يا سيدي تم تسجيل جميع الشهداء والجرحى، وبيان الشهداء هو:

(٤٤٧) شهيداً من أهل الشحر.

(٢١٦) شهيداً من أهل حضرموت الداخل.

(٣٦) شهيداً من أهل الصومال.

(٢٢) شهيداً من الهنود.

إجمالي الشهداء يا سيدي (٧٢١) شهيداً، من بينهم أهل الشورى السَّبعة وقد تم قبر ستة منهم ومعهم الأمير مطران في قبر واحد حيث قتل الأمير مطران، وقبر سابع أهل الشورى الشيخ أحمد بلحاج في قبة أبيه الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل، هؤلاء كانوا يقودون الأهالي المقاتلين يساعدهم مقادمة الحارات، وكانوا يمتثلون للأمير مطران وقادة الجند الشيخ مبروك أمير بحر، ونقباء الحاميات السلطانية.

دار في الديوان حديث كثير وأثيرت قضايا متعددة الاتجاهات، والسلطان في أخذ ورد بينه وبين جلسائه إلى أن بلغ به الجُهد والتعب فأمرهم بالانصراف قائلاً لهم:

ـ انصرفوا الآن لترتاحوا وأرتاح من عناء السفر، وادعوا أعيان البلد والمقادمة بأن يأتوني بعد صلاة العصر إلى ضريح الشهداء السَّبعة سوف نقوم بزيارتهم والترحم عليهم ونلقي على الأهالي كلمة نخاطبهم ونواسيهم.

أشار السلطان بدر بيديه للجمع بالانصراف فانصرفوا، أما هو فقد طلب كوباً من الماء وخلع ملابسه واستحم ثم خلد إلى النوم على سريره الوثير.

عند ضريح السَّبعة

استبشر أهالي الشحر بعودة السلطان بدر وجيشه وشعروا بالأمان، وتداولوا خبر زيارة السلطان لضريح السَّبعة ودعوته الأهالي للاجتماع بهم في الساحة الملاصقة للضريح، فما أن أدُّوا صلاة العصر جماعات في مساجدهم، حتى هرعوا إلى ضريح السَّبعة وامتلأت الساحة بأفواج الأهالي والمقيمين بالشحر وهم في انتظار مقدم السلطان، ولم يطل انتظارهم فأقبل السلطان في موكبه خلفه قادة الدولة والجيش وبجواره الشيخ (أحمد بن محمد سبتي) خطيب جامع الشحر، فاستقبلتهم الجموع بالترحيب والتحية، والسلطان يلوح بيديه محيياً مستقبليه، وحين ترجلوا من أحصنتهم اتجهوا إلى الضريح وسلموا على السَّبعة فيه، ثم وهب الشيخ أحمد الفاتحة للشهداء مترحماً وداعياً لهم بالمغفرة، وقرأ السلطان ومن حضر في تلك الزيارة الفاتحة.

ثم استدار السلطان وخاطب الجموع بالجلوس وافتراش الأرض فامتثلوا وبقي هو واقفاً وخلفه حارسان من حراسه وقوفاً

أيضاً، وبدأ خطابه مبسملاً وحامداً ومصلياً على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

ـ أيها الناس يا أهل الشحر والمقيمين فيها أحمد لكم ابتلاءكم وجهادكم للكافر المعتدي ومقاومتكم وشجاعتكم في دحر هذا العدوان البرتغالي الغاشم على مدينتكم الباسلة، إنكم صدقتم مع الله فآزركم ونصركم، وكان هؤلاء السَّبعة وهم من هم في مكانتهم وعلو كعبهم وهم أهل مشورتي ونصحائي أسترشد برأيهم وأعمل به، وفي رأيهم دائماً النصح والصواب، فإن فقدتهم اليوم وزاد حزني عليهم، إلا أنني مسرور بحسن خاتمتهم فقد نالوا الشهادة مقبلين غير مدبرين، مجاهدين في سبيل الله من أجل الذود عن الأرض والعرض وديار الإسلام والمسلمين ومعهم كل الشهداء الذين نالوا الفخر الأبدي ورضا الرَّب، فللشهيد أجر كبير، فطوبى لهم طوبى.

أيها الناس: قتل خلق كثير في هذه المعركة وإني أواسي ذويهم وأصبرهم وأبشرهم بفوزهم عند الله، وأما أهاليهم فهم رعيتي وأنا سلطانهم، وإني خصصت لكل أسرة شهيد ما يكفيهم من مؤنة ويقيهم عوز الفاقة، وإني أوجه مقادمة الحارات باستلام مستحقات تلك الأسر وتوزيعها عليهم أسبوعياً، وتلمس حاجاتهم ورفعها إلى

ديوان السلطنة للنظر فيها وتلبيتها، وأيضاً مثل ذلك للجرحى حتى يشفيهم الله.

عج الحاضرون بالشكر والدُّعاء للسلطان بدر، فحياهم بيديه وأردف قائلاً:

أيها الناس: تعرفون فقدنا للكثير من جنود السلطنة وأننا في حاجة إلى زيادة عدد الجند، فإني أدعو الشباب في الانخراط في السلك العسكري والتجنيد لحماية هذه البلد وتثبيت دعائم السلطنة الكثيرية ومجابهة كل عدو يتربص بها.

أيها الناس: استشهد الكثير من الفقهاء وطلبة العلم ونحن في حاجة إليهم وإلى علمهم وإني مستقدم رجالاً من أهل العلم من وادي حضرموت فألحقوا أولادكم في مدارسهم وعلمهم حتى يسعدوا في الدنيا والآخرة.

أيها الناس: خسر الكثير من التجار وأصحاب الحوانيت أموالهم وبضائعهم وأيضاً أحرقت بعض الديار وهدمت، وما أحرق غير ذلك من سفن وقوارب ومصانع ومعاصر، وإني شكلتُ لجنة لحصر هذه الحرائق والهدم وسوف ترفع لي مقدار الخسارة لكل فرد، ونسعى في تعويضهم بإذن الله بما نراه مناسباً.

أيها الناس: إني أحيي النساء الشحريات اللاتي هببن لنجدة المحاربين بإسعافهم وتطبيبهم وتضميد جراحهم، فهذا العمل لا يقمن به إلا ذوات الهمم العالية المحتسبات لله، فجزاهن الله كل خير، وإني آمر لهن بمكافآت هي هديتي إليهن، أما علاج الجرحى ستتكفل به السلطنة حتى يشفوا بمشيئة الله، وكل من لديه مشكلة أو حاجة من الأهالي والمقيمين فليأتوا إلى ديوان السلطنة فإني سامع لهم وفاتح قلبي قبل بابي.

وإني أيها الناس أمرت بتسوير هذا الضريح لهؤلاء السَّبعة فهم عنوان جهادكم ومقاومتكم وسيخلدهم التاريخ ويخلد شهداء الشحر جميعهم ويخلدكم بذكرهم، فستروى قصة جهادكم للأجيال ومنها يستقون البطولة والدفاع عن الكرامة والوطن ويستميتون في سبيله بما يملكون..

فطوبى لشهداء المقاومة وطوبى لقادتهم السَّبعة...

..... طوبى لشهداء المقاومة وطوبى لقادتهم السَّبعة.....

قال هذا السلطان بدر وختمها بالسلام،

وودع الحضور ومضى،

وتفرقت الجموع وفي قلوبهم شغف وفي آذانهم ترن كلمة السلطان بدر..

ــ السَّبعة...

..... السَّبعة....

..... السَّبعة.

.. النِّهايْة ..